أفاق في الوعي السنني

وصية لكل المقبلين على الحياة الزوجية

الأسرة المسلمة على طريق النهضة الحضارية

الطيب برغوث

مركز الراية للتنمية الفكرية

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم :(٧١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الأسرة المسلمة
على طريق النهضة الحضارية
وصية لكل المقبلين على الحياة الزوجية

جميع الحقوق محفوظة

مركز الراية للتنمية الفكرية

www.alraya-center.com

الجمهورية العربية السورية
دمشق ص.ب: ٩١٨٤
هاتف: ٦١١٩٣٦١ ١١ ٠٠٩٦٣

المملكة العربية السعودية
جدّة ـ شارع الستّين
مركز نصّار التجاري
الدور الرابع - مكتب رقم ٤٠٥
هاتف: ٠٠٩٦٦٢٦٦٨٦٨٢٠
فاكس: ٠٠٩٦٦٢٦٦٨٦٨١٠
جوّال: ٠٠٩٦٦٥٠٣٦١٥١٩٠

الطبعة الأولى
لمركز الراية
١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

آفاق في الوعي السنني
الأسرة المسلمة
على طريق النهضة الحضارية
وصية لكل المقبلين على الحياة الزوجية

المؤلف : د. الطيب برغوث
قياس الصفحة: ١٢×٢٠سم
عدد الصفحات : ٢٤٠ صفحة
التنفيذ الطباعي:
مركز الراية للتنمية الفكرية

آفــاق في الوعي السنني

٢١٠,٤
ب ط م

الأسـرة الـمسـلمـة
على طريـق النهضـة الحضاريـة
وصية لكل الـمقبلين على الحياة الزوجية

د. الطيب برغوث

مـركــز الـرايــة

للتنمية الفكرية

مؤسسة ثقافية ناشرة تعنى بالفكر الإنساني وتجلياته الإبداعية، وتسعى لبعث ثقافة منفتحة تعانق الآخر ولا تستبعده أو تقصيه، وتنمي أنهار المعرفة بتغذيتها بفكر حر متجدد.

يقوم المركز على ثوابت و قسمات هوية الأمة الرئيسة ليؤصل مفاهيم حضارية مثل:

- ✓ العقلانية والرشد الفكري هما ركيزتا البعث الحضاري المنشود للأمة.
- ✓ استلهام الدروس والعبر من الماضي لعيش الحاضر بعين مبصرة واستكشاف المستقبل بروح متبصرة.
- ✓ التركيز على عوامل العطل والكلالة والاستنبات التي أدخلت الأمة في نفق الصوت لا الفعل، ومحاولة الكشف عن جذورها ورصد تفرعاتها المتعددة وصولاً إلى حلول لأمراضنا الفكرية والتربوية والنفسية والاجتماعية و..و..
- ✓ إغناء عقل القارئ العربي بما فيه المتعة والفائدة، وجذب القراء بمختلف شرائحهم العمرية بإصدار ما يتفق مع طموحاتهم و ينمي وعيهم ويفتح آفاق المعرفة أمامهم.
- ✓ إصدارات أكثر تنوعاً وغنى لوضع أسس جديدة في تفهم الذات والتعامل مع الآخر وذلك من قبل مجموعة من المفكرين المتميزين بفك.ر حر أصيل.

الإهـــداء

هذه الوصية المتواضعة أهديها

إلى ابنتي العزيزة

عائشة برغوث

وإلى زوجها الفاضل

مراد يخلف

وإلى كل شابين مؤمنين،

مقبلين على الحياة الزوجية،

آملين أن يضيفا لبنة نوعية جديدة

في صرح المجتمع والأمة والحضارة الإنسانية.

محبكم الطيب

بين يدي الطبعة

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد: فإن الفكرة المركزية لهذه الرسالة المتواضعة، هي محاولة وضع الزواج والمؤسسة الزواجية، أو الأسرة، في سياقهما المقاصدي الكلي الصحيح، وهو سياق النهضة الحضارية الإنسانية، كقانون عام يحكم أو يجب أن يحكم كل شيء في حياة الإنسان ابتداء، وفي حياة المسلم والأمة المسلمة بصفة خاصة.

ذلك لأن طريق الخلافة البشرية في الأرض، يمر حتماً عبر **طريق النهضة الحضارية المتجددة**، بمراحلها الكلية التكاملية الأربع: الإقلاع، فالمواكبة، فالمنافسة، فالريادة الحضارية؛ حيث يحتاج المجتمع أو الأمة في كل مرحلة من هذه المراحل إلى نهضة حضارية مكافئة؛ في أصالتها وفعاليتها واطراديتها، تستجيب لتطلعات وحاجات وتحديات تلك المرحلة. كما شرحنا ذلك في كتاب: «**مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية**».

لهذا فإن كلّاً من فلسفة التاريخ والحضارة؛ بوصفهما حقلين معرفيين مركزيين في المعرفة البشرية، يبحثان عن سنن الاستخلاف وقوانينه الكلية، يؤكدان بأن مشكلة كل أمة في التاريخ، هي باستمرار مشكلة نهضتها الحضارية؛ كيف تتأسس مرجعيتها؟ وكيف تقوم عليها حركة النهضة؟ وكيف تحقق أبعادها العالمية والكونية؟ وكيف تعمق روحها الإنسانية والعبادية؟ وكيف يستمر عنفوانها الحضاري؟ وكيف تتلافى أسباب الضعف والسقوط الحضاري؟

ومن المسلمات الأساسية في فقه النهضة الحضارية، أن النهضة الحضارية تصنعها باستمرار مؤسسات ومحاضن فكرية وتربوية واجتماعية أصيلة وفعالة ومطردة. وفي مقدمتها مؤسسة أو محضن الأسرة، عندما تتمكن هذه المؤسسة من امتلاك الوعي الصحيح عن دورها ورسالتها أولاً، ثم تتمكن من امتلاك الشروط الموضوعية المختلفة لتجسيد ذلك الوعي في واقع حياتها ثانياً.

ونحن كأمة في مرحلة الإقلاع الحضاري من مسار

النهضة الطويل، في حاجة ملحة إلى مراجعات معمقة ومستمرة لأوضاع وأدوار المؤسسات المركزية في المجتمع، وفي مقدمتها مؤسسة الأسرة، لنمنحها شروط الأصالة والفاعلية المطلوبة. وهو ما جاءت هذه الرسالة المتواضعة لتساهم فيه، وتقدم للأسرة بعض الأفكار الأساسية في الوعي بالأدوار وفي الوعي ببعض الشروط المحورية معاً.

وأعتقد بأن الأسرة المسلمة المعاصرة، وقعت فيها اختلالات جذرية في الوعي بالأدوار والوعي بالشروط معاً، مما يستدعي مراجعات وإعادة ترميم أو بناء في المجالين أو على البعدين معاً، حتى نتمكن من وضع الأسرة مجدداً في سياق خدمة نهضة المجتمع والأمة، والخروج بها من الأدوار الهامشية والتنافرية، التي وضعتها فيها سياقات المنطق الفردي والقبلي والعروشي والعرقي والقطري والقومي والاستلابي.. المتحرك خارج أو ضد منطق المجتمع والأمة والنهضة والحضارة والاستخلاف!

فالأسرة المسلمة المعاصرة، في حاجة إلى إعادة تكييف

رسالتها وأدوارها ووظائفها مع **«استراتيجية العبودية والعالمية والإنسانية والكونية»** التي تقوم عليها الخلافة البشرية في الأرض ابتداء، وتقوم عليها رسالة الإسلام والأمة المسلمة تبعاً لذلك ثانياً، والتي أبعدتها عنها كثيراً، سياقات المنطق التجزيئي التنافري الهامشي السابق. ثم تكييفها كذلك مع الدور المركزي للمسلم والأمة المسلمة في العالم، باعتبارهما مسؤولان معاً عن وجود الأمة أو الكتلة الحضارية الوسط أو المحورية، المعنية مباشرة بالأمن والاستقرار والتوازن الحضاري العالمي والكوني، كما جاء النص على ذلك بوضوح في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة٢/ ١٤٣]. وقوله سبحانه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران٣/ ١٠٤].

وضمن هذه المستويات والدوائر المتعددة والمتكاملة من إعادة بناء وتكييف وعي الأسرة المسلمة، تأتي كذلك دائرة

أعمق من الوعي الرسالي المتقدم، الذي يجب أن يتأسس لدى الأسرة المسلمة ويأخذ طريقه إلى حياتها الفعلية، وهي دائرة إعادة تكييف وعي ورسالة الأسرة المسلمة مع «**استراتيجية إمامة المتقين**» التي تمنح المجتمع والأمة، قيادةً رسالية نوعيةً مقتدرة، تضطلع بأدوار التجديد والإبداع والتطوير النوعي العالي الرفيع لأداء حركة نهضة الأمة والإنسانية، كما جاء التوجيه إلى ذلك في مثل قواه تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان ٢٥/ ٧٤].

فالأفق الرسالي الذي يستهدف الإسلام رفع وعي الأسرة المسلمة وبقية مؤسّسات المجتمع والأمة، نحوه، أفق استخلافي حضاري نوعي إنساني عالمي كوني، وليس مجرد أفق حضاري عادي. لأن إمامة المتقين، الذين يُفترض فيهم أنّهم خلاصة النوعية البشرية السوية في عصرهم، تقتضي نوعية قيادية أكثر استجماعاً لشرائط الإمامة الحضارية الفكرية والنفسية والروحية والسلوكية والإنجازية، حتى تتمكن من

قيادة المجتمعات والأمم التي تتوفر على مثل هذه النوعية البشرية الممتازة. وهو ما عبرت عنه حكمة شهيرة في فلسفة التاريخ والحضارة، جاء فيها: «كيفما تكونوا يُولّى عليكم».

وهذه الرسالة المتواضعة، محاولة للانطلاق بالوعي والأداء الأسري في هذا الاتجاه، لخدمة هذه الاستراتيجية وتمكين الأسرة المسلمة من أداء دورها في هذا الإطار بالكفاءة الرسالية المطلوبة.

وقد حرصت على أن أثريها بزيادات وتنقيحات كثيرة، مست جل صفحاتها تقريباً، لم أتمكن من تضمينها في طبعتها الأولى التي طُبعت على عجل، ووقعت فيها أخطاء مطبعية كثيرة، كما أنها لم تحض بالخدمة التوثيقية اللازمة، وقد استكملت ذلك في هذه الطبعة بحمد الله، وأحلتُ القارئ الكريم على مصادر المعلومات الكثيرة التي استفدت منها في كتابة هذه الرسالة.

وبصدد ذكري لمصادر توثيق المعلومات، أود أن أشير هنا إلى أنني اعتمدت كثيراً على تخريجات الشيخ ناصر الدين الألباني

رحمه الله للأحاديث النبوية، وأخشى أن يظن بعض غير الملمين بالثقافة الحديثية، أن كل الكتب التي ذكرتها له هي من تأليف الشيخ الألباني ابتداء، بل هي في أصلها من تأليف علماء الحديث المشهورين، وهو قام بتخريج أحاديثها وتحديد درجتها من سلم حكم الحديث في موازين علم المصطلح. دون أن يعني ذلك طبعاً أنه لم يكن له جهده المستقل في التأليف، بل كان له جهد كبير، وفي مقدمته سلاسل الأحاديث الصحيحة والضعيفة التي ضمت آلاف الأحاديث.

وفي الأخير أرجو الله تعالى أن ينفع الأمة بهذه الرسالة، وأن يتجاوز عن سهوي وخطئي وتقصيري، وأن ينفعني بثوابها يوم العرض عليه.

النرويج

٢٦ جمادى الأولى ١٤٢٦هـ

٣تموز/ يوليو ٢٠٠٥م.

طيب

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

وبعد:

فهذه رسالة متواضعة، كتبتها في الأصل كوصية لابنتي عائشة حفظها الله، بمناسبة زواجها المبارك بإذن الله، ضمَّنتها مجموعة من التوجيهات التي زودتني بها خبرتي في الحياة، وفهمي في الإسلام، وقراءاتي المتصلة بالفكر الإنساني عامة، قصدت منها المساهمة في بناء وعي أسري سنني ناضج، يتيح للحياة الأسرية أن ترتقي إلى أفق الطموح الرسالي الذي تفتحه أمامنا «**استراتيجية إمامة المتقين**» التي وضعها القرآن مقصداً مركزياً للزواج والأسرة في الإسلام، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الفرقان٢٥/ ٧٤].

فالأسرة من المنظور السنني الكوني العام، هي مضغة المجتمع والحضارة، التي إذا صلحت صلحا وإذا فسدت فسدا ! فقوة المجتمع وضعفه، وعنفوان الحضارة ووهنها، مرتبطان على الدوام بطبيعة الأسرة وبأفق طموحها الإنساني أو الاستكباري، لذلك أولاها الإسلام عناية محورية في مشروعه الثقافي والاجتماعي والحضاري، وجعلها مرتكز النهضة الحضارية باستمرار، كما يبدو ذلك في الآية السابقة، التي جعلت من مهام الزواج والأسرة في المجتمع، تزويد المجتمع والأمة بالقيادة الرسالية النوعية العالية، التي تضطلع بمهام التغيير والإصلاح والتجديد والنهضة الحضارية في المجتمع والأمة والعالم.

ولقد كان من طموحي منذ سنوات طوال، أن أؤسّس **«معهداً وطنياً حراً للتأهيل والوقاية الأسرية»**، يتمحور اهتمامه الأول حول التأهيل الفكري والتربوي والروحي والاجتماعي للشباب المقبل على الزواج من ناحية، كما يتمحور اهتمامه الثاني حول الوقاية المبكرة والمرافقة والبعدية لهذا الزواج،

وللمؤسسة الأسرية التي تنبثق عنه من ناحية أخرى. وإن كانت الظروف المأساوية التي مرت بها الجزائر حرمتني من تحقيق ذلك، فإنني آمل أن أتمكن أو يتمكن غيري يوماً ما من إنجاز هذا المشروع الاستراتيجي الحضاري المفصلي في حركة النهضة الحضارية للمجتمع والأمة.

ويعود اهتمامي بهذا الموضوع إلى بداية الثمانينيات من القرن الماضي، عندما كنت أحضر المرحلة الأولى من دراساتي العليا بالمعهد الوطني العالي لأصول الدين بجامعة الجزائر، حيث أنجزت مشروعاً منهجياً عن: «**التدابير الوقائية من الطلاق في الإسلام**» ، واكتشفت من خلاله الكثير من نواحي الضعف والاختلال في بنية وأداء المؤسسة الأسرية، وتطورت معي فكرة العناية بهذه المؤسسة الخلوية أو المضغية في المجتمع، وبدأت أبلور بعض الأفكار والتصورات التي أفضت بي إلى فكرة «**المعهد الوطني للتأهيل والوقاية الأسرية**» مع بداية عقد تسعينيات القرن الماضي، ولكن خروجي القسري من الجزائر حال بيني وبين إتمام الفكرة.

إن الأسرة في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة عامة، وفي المجتمع الجزائري خاصة، تعاني من نواقص ومشكلات كثيرة وكبيرة، تعيقها عن أداء دورها المركزي في حركة النهضة الحضارية للأمة، وفي مقدمة هذه النواقص والمشكلات **تضعضع الدور التربوي الرسالي للأسرة**، بسبب أمية الوعي الديني والتاريخي المستنير من جهة، وبسبب جاذبية النماذج الثقافية والاجتماعية للحضارة الغربية المعاصرة من جهة أخرى، وعمق الفجوة الحضارية المزدوجة التي تعيشها الأجيال الإسلامية المعاصرة من جهة ثالثة، والتي تجد نفسها معزولة عن روح وعمق الأصالة الإسلامية المستنيرة، وعن عمق وروح الحضارة المعاصرة في الوقت نفسه، فهي تعيش في منطقة تجاذب حضاري تنافري هامشي حاد، يحول بينها وبين وصل نفسها بروح وعمق الإسلام والعصر، والانطلاق نحو المساهمة الفاعلة في حركة النهضة الحضارية للأمة.

والنهضة الحضارية تتم بشكل دائم، بتحقيق هذا الوصل التجديدي الإبداعي التكاملي بين روح الهوية الحضارية للأمة

وروح العصر الذي تعيش فيه، لأن النهضة الحضارية لأية أمة لا يمكنها أن تتم خارج هذين المقومين أو الشرطين الأساسيين، وأمتنا لم تتمكن بعد من تحقيق هذه التكاملية الإبداعية التجديدية، بسبب عوامل ذاتية وخارجية كثيرة، نحسب أن تضعضع الدور التربوي الرسالي للأسرة يأتي في ضمن قائمة هذه الأسباب الجوهرية، إن لم يأت في مقدمتها جميعاً.

من هنا تأتي أهمية العناية بالدور التربوي الرسالي للأسرة، كمحضن مفصلي للنهضة الحضارية، وهنا يبرز دور التأهيل الرسالي للحياة الزوجية، والدور الوقائي لهذه الحياة الزوجية أثناء وبعد قيامها، لتمكينها من الاضطلاع بدورها التربوي والاجتماعي، في تزويد المجتمع والأمة بالقيادات الرسالية النوعية العالية، التي تقود حركة النهضة الحضارية نحو الأصالة والمعاصرة الفاعلة.

وبالرغم من أن الأسرة ليست هي المؤسسة الوحيدة المؤثرة في حركية المجتمع، فإنها تظلُّ أقوى هذه المؤسسات وأفعلها على الإطلاق، إذا استطاع المجتمع أن يمنحها الشروط الموضوعية

للقيام بدورها التربوي والاجتماعي، وفي مقدمة هذه الشروط، الشرط الفكري النفسي التربوي المنهجي المؤسس لوعيها الرسالي المستنير، الذي ترتكز عليه بقية وظائفها وأدوارها الاجتماعية، وتستمد منه فعاليتها وأصالتها واطراديتها.

وفي سياق منح الأسرة هذه الشروط الموضوعية للقيام بدورها الرسالي المركزي في النهضة الحضارية للأمة، أودّ أن أؤكد على مدى أهمية الحاجة إلى الاستثمار الفكري والتربوي والاجتماعي في **مجال الوعي والبناء والوقاية الأسرية**، التي لم تحظ بالاستثمار المطلوب لحد الآن، كما حظيت مجالات أخرى بالاستثمار، بل واستأثر بعضها بهذا الاستثمار، على الرغم من أن أهميتها الاستراتيجية لا ترقى إلى الأهمية الاستراتيجية للأسرة، وبالرغم من عقم الاستثمار في بعض هذه المجالات لحد الساعة، كالاستثمار في المجال السياسي على سبيل المثال، الذي لم ولن يجدي الاستثمار فيه بمعزل عن نجاح الاستثمار في المجال الأسري خاصة، وبقية المجالات ذات الطبيعة التربوية الاستراتيجية بصفة عامة. وأنا مقتنع تماماً بأن نجاح الاستثمار

في مجال التأهيل والوقاية الأسرية، سيحدث تغييرات بنيوية عميقة في الأداء وفي الحراك السياسي والاجتماعي والثقافي، ويدفع بحركة النهضة الحضارية قدماً نحو المزيد من الأصالة والفعالية والاطراد.

ومن يتأمل في واقع الأسرة؛ من خلال رصد التوترات الأسرية، ومعدلات الطلاق، والطفولة الجانحة، والتسرب المدرسي، والجريمة الاجتماعية، والتدهور الأخلاقي.. وغيرها من الظواهر المرتبطة بالأسرة، يدرك فعلاً مدى الحاجة إلى الاستثمار في مجال التأهيل والوقاية الأسرية، كما يدرك كذلك جانباً من الأسباب العميقة لضعف أداء حركة النهوض الحضاري للأمة، على الرغم من الجهود المضنية المبذولة منذ قرون. وقد بينت التحليلات المعمقة لظواهر وسنن النهضات الحضارية في التاريخ، مدى عمق البعد التربوي في هذه النهضات، والذي تضطلع به الأسرة الرسالية ابتداء، ثم المدرسة الرسالية لاحقاً، فالمجتمع الرسالي، فالدولة أو الأمة الرسالية.

وهنا تتجلى أولوية استراتيجية بالغة من أولويات الصحوة خاصة والمجتمع والدولة عامة، وهي ضرورة التركيز على الاستثمار في مجال التأهيل والوقاية الأسرية، عبر خطط وبرامج منهجية مدروسة، تتجه نحو التأهيل الفكري والروحي والنفسي والسلوكي والاجتماعي للشباب المقبل على بناء حياته الزوجية، ونحو الوقاية المبكرة والمرافقة والبعدية لهذه الحياة الزوجية القائمة فعلاً أو في طريقها إلى القيام. ولا شك أن هذا المجال خير ما ينبغي أن تُبذل فيه الجهود، وتُصرف فيه الأوقات، وتُنفق فيه الأموال، وتتفرغ له الكفاءات الفكرية والفنية المختلفة في الصحوة والمجتمع والدولة والأمة. وكما هو معروف فإن الأعمال تشرُف بقدر عظم نفعها للمجتمع، وهذا المجال من العمل، يأتي في مقدمة الأعمال العظيمة النفع، لما يترتب عليه من تأثير استراتيجي عميق في نهضة الأمة، يحسن بكل ذي خبرة أو مال أو وجاهة أو نفوذ.. أن يستثمر فيه بما يستطيع، وألا يحرم نفسه من فضائله وبركاته وثوابه.

وأنا وإن كنت لم أقصد في هذه الرسالة المتواضعة تقديم رؤيتي المتكاملة لـ **«مشروع التأهيل والوقاية الأسرية»**، فإنني آثرت إثارة الاهتمام بهذه الأولوية الحيوية حتى تأخذ حقها من العناية والتجسيد، مع أن هذه الرسالة المقتضبة لم تخل من بعض الأفكار المحورية التي تندرج في سياق تصوري لمشروع التأهيل والوقاية الأسرية، كما سيلحظ ذلك القارئ المهتم.

وأخيراً أرجو الله التوفيق والسداد وحسن الختام.

الزواج بين منطلقين وأفُقَين

ابنتي العزيزة:

وأنا أهم بكتابة هذه الوصية إليك، وأنتِ تُقبلين على مرحلة أساسية من مراحل حياتك الخصبة إن شاء الله، أخذتُ أفكر من أين أبدأ هذه الوصية المتواضعة؟ هل أدخل مباشرة في الموضوع لأقدم لك مجموعة من النصائح التي زوَّدتني بها تجربتي الشخصية في الحياة الزوجية؟ أو علمتني إياها قراءاتي الطويلة والمختلفة؟ أو أفادتني بها خبرتي عبر تعاملي الطويل مع مشكلات المجتمع وهمومه؟

أم أقصّ عليك طرفاً من تجارب الناجحين والناجحات، والفاشلين والفاشلات في حياتهم الزوجية، حتى تأخذي منها العبرة، وتثري بها خبرتك في الحياة، وتستثمريها في الاستمتاع بحياتك الزوجية، وفي وقايتها من أي منغّصات يمكنها أن تسرق منك جزءاً من هذه السعادة؟

أم أغوص بك في بعض جزئيات الوعيَين الفقهي والعرفي، المؤثِّرَين في تأسيس الحياة الزوجية، حتى تتسلّحي بالمنهج الذي يعينك على الفرز والتصنيف والنقد والاختيار السليم بين البدائل المتاحة لك، في خضم بحار متلاطمة من الجزئيات الفقهية والجزئيات العرفية الكثيرة، التي تجدين نفسك أمامها وجهاً لوجه كل يوم؟

أم أعرج بك على بعض معتركات وترهات تحرير المرأة التي راجت سوقها، وتكاثرت ضحاياها، وامتدت دعاواها في فراغنا الفكري والثقافي واستطالت، حتى تحولت إلى استلاب حضاري مفتت للأسرة ومنهك للمجتمع؟

أم أطوف بك في بعض جنبات تاريخ وواقع تهميش المرأة في مجتمعاتنا الإسلامية، ومصادرة حقها في ترقية نفسها والمشاركة في ترقية مجتمعها وأمتها؟

ابنتي العزيزة: لقد فكرت في ذلك كله، وذهب بي التفكير بعيداً إلى أعماق بدايات الخليقة، وطاف بي في أرجاء هذا العالم الفسيح، وفي جنبات هذه الحضارة الإنسانية

المعاصرة، وكنت في ذلك كله أتساءل عن أسرار وحكمة هذا الزواج، وأدركت بأن الزواج ليس هو مجرد هذه العلاقة المحدودة بين رجل وامرأة، أو أسرة وأسرة، بل هو ذو صلة عميقة ومباشرة بنظام الوجود والحياة والحضارة كلها، وهو ما ينبغي أن لا يغيب عن ذهن كل آدمي دخل في هذه العلاقة الزوجية أو سيدخل فيها يوماً ما.

إن إدراك موقع الزواج من نظام الوجود، وحركة الاستخلاف في الأرض، ينبغي أن يشكّل مقدمة الوعي الأولى التي يجب أن نركزها في وعي الأجيال عامة، وفي وعي كل مقبل على الزواج خاصة، حتى يتسع أفقه ليستوعب مقاصد الزواج الأساسية، فيدرج زواجه في ذلك السياق الكلي الذي يعطي لهذا الزواج أبعاده الاجتماعية والإنسانية والحضارية الكبرى، ولا يختزله في عاطفة عارضة، أو شهوة عابرة، أو علاقة ثنائية وعائلية واجتماعية محدودة، لأن الزواج في حقيقته هو بوابة الانفتاح الحقيقي على الحياة عبر العلائق والوشائج الحميمية التي تترتب عليه وتنبثق منه في اتجاه الزوجية والبنوة

والأبوة والأخوة والعلائق القرابية التي تتسع دوائرها حتى تنتهي إلى الأبوة والأخوة الإنسانية العامة.

وفي هذا السياق جاء تذكير القرآن بوحدة أصل ومعدن الخليقة البشرية، والتلاحم الروحي والاجتماعي القائم بين البشر، والمكانة المحورية للحياة الأسرية التي تنبثق منها جميع تلك العلاقات العاطفية والروحية والاجتماعية، وتأخذ مداها في الانتشار والتنوع والتكامل في حركة الاستخلاف بعد ذلك. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾ [النساء٤/ ١].

فالأسرة هي منطلق ومحضن التفريخ للنوع البشري، ومؤسس العلاقات الاجتماعية فيما بينهم، والمسؤولة قبل أية مؤسسة اجتماعية أخرى عن وضع حركة المجتمع على خط العبودية والعالمية والإنسانية والكونية، كما لَخَّصت ذلك بكثافة شديدة الآية السابقة، بحكم دورها التربوي

والاجتماعي المباشر والمكثف، الذي من المفترض أن تؤديه في البناء الأسري والمجتمعي عامة، قبل الزواج وبعده، وقبل الولادة وبعدها.

ابنتي العزيزة: لقد تأمّلت في هذه الحضارة الرائعة، والمفترسة في الوقت نفسه، التي نستمتع بخيراتها الغامرة، ونكتوي بعذاباتها المتلاحقة! وتساءلتُ منتشياً ومستمتعاً حيناً ومنقبضاً ومتألماً حيناً آخر:

مَن صنع هذه الحضارة الرائعة منذ آلاف القرون؟ والتي بلغت مدى عظيماً من القوة والفعالية في عصرنا، ومع إنساننا المعاصر؟ مَن يقف وراء عظمة المنجزات العلمية والثقافية والتكنولوجية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإدارية... الرائعة لهذه الحضارة؟ من أعطانا هذا العالم الجميل الممتع، الذي نعيش نحن في هذه اللحظة السعيدة جزءاً من متعته في الأكل والزينة ووسائل الراحة والترفيه والاتصال..؟ مَن يقف وراء ما نحن فيه من متعة وراحة وأمن من الخوف والجوع؟

ومَن صنع الجزء المأساوي من هذه الحضارة عبر التاريخ؟ مَن يقف وراء مأساة الرقيق والعبيد، والاستعمار، واضطهاد المرأة، وتشريد الطفولة، وانتهاك ضعف الشيخوخة؟ من قتل أكثر من ٥٢ مليون من البشر في الحرب العالمية الثانية وحدها، ودمّر هيروشيمة وناجازاكي بأخطر سلاح فتّاك في التاريخ؟ مَن صنع مآسي التشرد والانتحار والقلق النفسي المدمر؟ مِن أين أتى خراب الأسرة وتحولها إلى سجن للنكد بعد أن كانت عشاً للراحة والسكينة والطمأنينة؟ مَن حوّل متعة الحياة والحضارة إلى عذاب متلاحق؟

ولما رحت أعمق التفكير في الجواب، مستقرئاً للتاريخ حيناً، ومحللاً للواقع حيناً آخر، ومسترشداً بهدي النبوّات حيناً ثالثاً، ومتأمّلاً في تجربة الذاتية حيناً رابعاً، وجدت أن ذلك كله هو من صنع الإنسان، أي من صنع آدم وحواء وقابيل وهابيل.. في عصرهم، وفلان وفلانة وآباءهما في عصرهم، وأنا وزوجتي وأولادي في عصرنا.. وهكذا يتسلسل تاريخ البشرية على الأرض، ويمتد بلا انقطاع. فنحن البشر الذين صنعنا هذه

الحضارة في أبعادها الإنسانية الرائعة المشرقة، وفي أبعادها الحيوانية المأساوية المهلكة للحرث والنسل كذلك!

ونحن البشر الذين صنعنا هذه الحضارات في اتجاهيها **العبادي العالمي الإنساني الكوني التكاملي الصاعد، والشكري الطاغوتي الذاتي التنافري** السافل، خلاصة تربية أسرية ناجحة هنا وفاشلة هناك، أي: خلاصة علاقة زوجية قام بعضها على أساس صحيح من الوعي بالوظيفة الاستخلافية الحضارية للزواج، وقام بعضها الآخر على أساس نزوة أو شهوة، أو أفق منحبس في وجاهة أو مكانة اجتماعية معزولة عن الهم والاهتمام المركزي للمجتمع والأمة والحضارة البشرية. وقد نبه النبي ﷺ إلى هذا المعنى في حديثه الجليل الذي قال فيه: **«تُنكحُ المرأةُ لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفَر بذات الدّين تَرِبَت يداك»** (رواه البخاري).

ولعل هذه النظرة المنفتحة على عمق وظيفة الزواج ورسالته في الحياة، تجعلني ألخص فلسفة الحياة وموقع الزواج منها في هذه المعادلة المحكمة المطردة في التاريخ

الإنساني كله، وهي أن:

الحضارة = رجل + امرأة + طفل + فكرة

فكلما التقى رجل وامرأة - وهما لا بد ملتقيان - كان الطفل ثالثهما، وبدأت بالطفل ومع الطفل مرحلة جديدة في مسيرة الحضارة الإنسانية! التي تحددها أغراض اللقاء ومقاصده؟ وكيفية اللقاء وضوابطه؟ والفكرة التي تقف وراء تحديد هذه الأغراض والمقاصد كلها؟ وتنظم هذه الكيفية ووضع ضوابطها؟ وذلك هو ما سماه البشر بالزواج، الذي اختلفت عاداته وتقاليده وأعرافه وأنظمته.. من ثقافة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر، ومن جيل إلى آخر كذلك، حسب فكرة كل فرد أو مجتمع أو أمة عن الله والإنسان والحياة والمصير البشري.

✿ ✿ ✿

الزواج مدخل الاستخلاف الحضاري

ابنتي العزيزة:

فالزواج إذن، ليس علاقة عاطفية روحية اجتماعية بين رجل وامرأة، أو علاقة مصاهرة بين عائلة وأخرى فحسب، بل هو مدخل الحضارات الإنسانية على الدوام، لأن تلك العلاقة الزوجية الجديدة، ستنتج لنا طفولة جديدة، تصب في عمق المستقبل وتغذيه، أي في عمق الحضارة وتغذيها؛ بما يجعلها حضارة تتحرك على خط العبودية والعالمية والإنسانية والكونية والخيريَّة، يسعد بها البشر، ويتذوقون فيها حلاوة الاستقامة على سنن الله في خلقه، باعتبار الحضارة هي دوماً ناتج قدرة مجتمع أو أمة على التفاعل الإيجابي مع سنن الله في خلقه. أو حضارة تتحرك على خط الإمبراطورية والاستكبارية والطاغوتية والشريَّة، يشقى بها البشر ويذوقون عبرها علقم الخروج عن سنن الله في خلقه، أو استثمارها استثماراً سيئاً.

فإذا كانت هذه الطفولة متشبعة بروح عبادية إنسانية مستنيرة، وبأخلاقية رسالية عالية، قائمة على المحبة والتراحم والحرية والمساواة والمسامحة والإيثار، فستنتج للعالم حضارة إنسانية خيِّرة راشدة، يستمتع بثمراتها كل البشر، بل وكل الخلائق في الأرض. وإذا نشأت هذه الطفولة في أجواء التيه العقدي، والقهر، والأنانية، والتمييز، والظلم، والميوعة، والعصبية.. فستنتج للعالم حضارة استكبارية سفيهة شريرة، تكون محنةً وعذاباً على البشر، بل وعلى جميع الخلائق في الأرض.

مقاصد الزواج في الإسلام

والإسلام باعتباره دين البشرية، ومنهاج بناء الحضارة الإنسانية الخيِّـرة الراشدة، فقد منح الزواج - بما هو **رجل وامرأة وطفل وأسرة وعلاقات إنسانية واسعة، وفكرة صحيحة تحكم ذلك كله** - عناية بالغة في مشروعه الاجتماعي والحضاري، حيث جاءت كثير من أحكامه وتوجيهاته.. مركزة على الرجل والمرأة، والطفل، والأسرة، والعلاقات المحيطة بهم، إذ بإمكاننا أن نقول: إن النسبة الأكبر من هذه الأحكام والتوجيهات، كانت متجهة نحو تنظيم وحماية هذه الدائرة أو المضغة المركزية من المجتمع والحياة، التي إذا صلحت صلح المجتمع والعالم كليهما، وإذا فسدت فسد المجتمع والعالم كليهما.

وقد يكفينا هنا أن نتذكر معاً، ما ورد في القرآن الكريم، وفي سورة الفرقان تحديداً، بشأن شخصية المسلم الرسالي،

الذي يكون طموحه باستمرار متمحوراً حول:

زواج سعيد + ذرية سعيدة + قدوة رسالية للآخرين

كما جاء ذلك في هذا المقطع الرائع من الدعاء أو النشيد اليومي لعباد الرحمن في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الفرقان٢٥/ ٧٤] .

فالإسلام يركز اهتمام المسلم باستمرار على تحقيق:

حياة زوجية منسجمة صالحة ناجحة سعيدة .

إمداد المجتمع والأمة والإنسانية، بذرِّية صالحة ناجحة سعيدة .

توجيه وتسخير ذلك الصلاح والنجاح والسعادة، نحو خدمة المجتمع والأمة والإنسانية، بشكل يجعل من كل فرد في الأسرة، ومن الأسرة كلها، قدوة نموذجية حية، ليس لعامة الناس في المجتمع والأمة والعالم فحسب، بل قدوة للناجحين منهم خاصة، كما توحي بذلك عبارة المتقين في الآية. وهو دون

شك أقصى طموح يمكن أن تتوق إليه النفس الكبيرة، وتسعى إليه، وتَـجِـدَّ من أجله.

وكما سبق أن أوضحت فإن هذا الدعاء يرسم الأفق الحضاري الإنساني للزواج فعلاً، لأن وعي عباد الرحمن وفقههم العميق في سنن الله، ارتقى بهم إلى إدراك رسالتهم في الحياة من ناحية، وهي المساهمة المتقدمة في بناء وقيادة ركب الحضارة الإنسانية على طريق الخيرية والعبودية والخلافة الراشدة في الأرض، كما توحي بذلك كلمة **إمامة المتقين**، كما أدركوا من ناحية أخرى بأن المدخل الأساس لتحقيق هذا الطموح العظيم هو الزواج الناجح كما هو واضح في المقطع الأول من الآية الكريمة.

السكينة روح الزواج وعمق السعادة فيه

وهو ما أدركه عباد الرحمٰن وضمّنوه في دعائهم السابق، في قولهم: ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾، إذ يعني ذلك طموحهم العارم إلى تحقيق روح الزواج وعمق الحياة ومتعَتها، وهو **السكينة النفسية والروحية والجسمية والاجتماعية**، التي تطبع حياتهم؛

كأزواج وزوجات، وكآباء وأمهات، وكأبناء وبنات، وكأسرة كبيرة في محيط اجتماعي أكبر، **بالمودة والرحمة والبركة**، كما جاء توضيح ذلك في حديث القرآن عن المقصد المحوري العميق من الزواج، في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الروم ٣٠/ ٢١] .

فالإنسان؛ رجلاً وامرأة، بالزواج يستكمل نصفه الآخر، أي يستكمل مقوّمات حياته المتوازنة، ويمنحها كامل قوتها وفعاليتها الاجتماعية، التي تظل ناقصة وغير مستقرة إلا إذا حدث الزواج الصالح الناجح السعيد، كما توضح ذلك كلمة: ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ في الآية، التي تعني أن كل فرد آدمي يظل مفتقراً إلى نصفه أو زوجه الآخر، ويجب عليه أن يستكمله، حتى تستقر وتتوازن حياته وتتحرك بكامل طاقتها وقوتها الاجتماعية في خدمة أهداف الخلافة البشرية في الأرض. وهو ما يؤكده الحديث النبوي الشريف الذي جاء فيه: «**إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين، فليتق الله في النصف الباقي**» (رواه

البيهقي) . وفي رواية أخرى: «**من تزوج فقد استكمل نصف الإيمان، فليتق الله في النصف الباقي**»(رواه الطبراني) .

قاعدة الزواج الناجح

ومن أجل زواج صالح ناجح سعيد، تغمره السكينة، وتغذيه المودة والرحمة، وتحفه البركة باستمرار، رسم لنا الإسلام خطوات عديدة ينبغي علينا أن نراعيها، قبل الزواج وأثناء الحياة الزوجية، سنذكر هنا باختصار أهمها، ونبدأها بالقاعدة الأساسية التي يرتكز عليها الزواج الناجح، ويقوم عليها صرح الأسرة الإسلامية الرسالية النموذجية بِرمَّتِهِ، وهو:

صدق وطهارة مشاعر المحبة المتبادلة بين الزوجين

فالصدق والطهارة في مشاعر المحبة بين الزوجين، هما القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها الزواج الناجح، ويقوم عليها صرح الأسرة الإسلامية الرسالية النموذجية، التي تمنح السكينة للعائلة كلها، وتشعُّ بالخيرية والرحمة على محيطها الاجتماعي باستمرار .

فالصدق والطهارة في مشاعر المحبة بين الزوجين، هما

الطاقة الروحية الدائمة التي تغذي هذه السكينة والبركة وتعمقهما باستمرار، وتحافظ على الإشعاع الاجتماعي الدائم للعائلة على محيطها الاجتماعي . فإذا ضعفت مشاعر المحبة الصادقة الطاهرة بين الزوجين، أو من أحدهما تجاه الآخر، تبدأ الحياة الزوجية تدخل مراحل التكلف والاصطناع والبرودة، التي تسلب هذه الحياة سكينتها ومودتها وحرارتها وبركتها، وتسير بها تدريجياً نحو الذبول والجفوة المنغصة، تماماً كما تذبل الوردة الجميلة الزاهية، وتفقد رائحتها المنعشة، ومنظرها المريح، عندما ينقصها الماء والهواء .

فصدق مشاعر المحبة بين الزوجين هو الذي يعطي للزواج أبعاده الروحية والعاطفية والنفسية العميقة، ويشد بنيان الأسرة، ويساعدها على الاستمتاع الأمثل بأوقاتها، وعلاقاتها، وإمكاناتها المختلفة، ويمكنها من مقاومة مُنَغِّصَاتِ الحياة، والصمود في وجه الابتلاءات التي تحيط بالحياة العائلة بشكل مستمر .

فالحياة الزوجية تكون خصبة وممتعة وسعيدة ومنتجة ومؤثرة فيما حولها، بقدر ما يتوافر فيها من صدق وطهارة

مشاعر المحبة بين الزوجين، وتكون جافة ومتعبة وسلبية، بقدر ما يضعف فيها صدق وطهارة مشاعر المحبة بينهما. تلك هي قاعدة الزواج المركزية التي ينبغي الحرص عليها كثيراً أثناء التحضير للزواج وخلال الحياة الزوجية .

أهمية المحافظة على تأجُّجِ مشاعر المحبة

والسؤال الذي يلازم الزوجين باستمرار ويؤرقهما، هو كيف يؤسسان حياتهما الزوجية على قاعدة صدق وطهارة مشاعر المحبة المتبادلة ؟ وكيف يحافظان على تأجج هذه المشاعر بشكل مستمر ؟

والإسلام كما أسلفنا، وضع تدابير كثيرة، تقود الحياة الزوجية إلى الصلاح والنجاح والسعادة، سنذكر منها هنا باختصار، بعض ما يتصل بالمحافظة على تأجيج صدق وطهارة مشاعر المحبة بين الزوجين، باعتبارها أساس السكينة الزوجية والعائلية .

أهمية التعبير عن هذه المشاعر

أي إبداؤها لشريك الحياة الزوجية وعدم إخفائها أو

كبتها، لأن ذلك من الأخطاء الكبيرة التي تقع في الحياة الزوجية، وتُعَرِّضُها للفتور والبرودة والجفاف مع مرور الوقت ! فإبداء مشاعر صدق وطهارة المحبة بين الزوجين، هو الغذاء اليومي الذي يؤجج المحبة والمودة والرحمة في الأسرة، وينعش السكينة فيها، ويمكنها من مقاومة أخطار التعود والرتابة والروتين والإلف، الذي عادة ما تتسم به أية حياة يومية مشتركة، ويؤدي في كثير من الأحيان إلى مشكلات تقضي عليها، أو على الأقل تسلبها الكثير من حيويتها وروحيتها وخصوبتها وبركتاها .

لذلك يجب على الزوجين أن يعبر كل منهما للآخر، بشكل مستمر، عن عواطفه الصادقة الطاهرة نحوه، بطرق ووسائل مختلفة ومتجددة، معنوية ومادية، وألّا يترك أي منهما فرصة تمر دون أن يعبّر لصاحبه عن عواطف المحبة له، والصدق معه، والإخلاص له، والحاجة إليه، وألّا يغتر أي منهما بقوة ومتانة العلاقة العاطفية والروحية والثقة المتبادلة بينهما، لأن حركة الحياة اليومية، وطول العشرة، وكثرة

المؤثرات في قلب الأسرة وفي محيطها، تؤثر على هذه العلاقات وتستهلكها باستمرار، فتحتاج على الدوام إلى تغذية وتجديد ورعاية ووقاية. والطريق إلى ذلك هو تقوية هذه المشاعر والتعبير عنها باستمرار، وعدم الاستهانة بأية مناسبة أو فرصة أو وسيلة للتعبير عن ذلك.

ومن يدرس سنة وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام في هذا المجال، يرى العجب العجاب في شحذ النبي ﷺ لمشاعر المحبة، والتعبير المستمر عنها لأزواجه بمختلف الطرق والوسائل. ولما كانت سنة النبي عليه الصلاة والسلام تحتل مكانة بارزة في التجارب الزوجية الناجحة من ناحية، وكان اتباعنا لها فرضاً وشرطاً للترقي في الإسلامية المستنيرة من ناحية أخرى، سأورد هنا بعض الدروس التطبيقية التي تبيّن كيف كان عليه الصلاة والسلام يغذي هذا العنصر الحيوي في الحياة الزوجية ويؤجّجه ويرعاه باستمرار.

ونحن يا بنيتي كلما استطعنا أن نتبع السنة ونستلهمها في حياتنا الخاصة والعامة؛ استلهاماً مقاصدياً منضبطاً، بعيداً عن

الاتباعية الحرفية الآلية، أو الاتباعية الانتقائية المميعة، أو الاتباعية الخرافية الذاهلة عن سنن الله في خلقه، كلما أمكننا أن نصل أنفسنا بعمق الإسلام وروحه، وكلما توافرت لنا شروط وأسباب النجاح والتوفيق في حياتنا والتأثير الإيجابي فيما حولنا.

دروس تطبيقية في التعبير عن مشاعر المحبة

الدرس التطبيقي الأول: في إشارات تعزيز المحبة

فقد كان ﷺ يشرب الماء من الإناء الذي تشرب منه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ويطلب منها أن تعرِّفه بالموضع الذي شربت منه، حتى يضع فمه الشريف في نفس المكان الذي وضعت فيه عائشة فمها وهي تشرب! ولا شك أن هذا السلوك الإنساني الراقي يؤجج لديها مشاعر المحبة والاحترام والثقة، ويرتقي بالعلاقة الزوجية إلى قمّة انسجامها وتماسكها وقوتها، وخصوبتها النفسية والعاطفية والاجتماعية.

عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فِي فيشرب، وأتعرَّق العرق[1] وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فِي.

(١) أتعرّق: آخذ اللحم بأسناني من عظم لم يبق فيه كثير لحم. انظر صحيح مسلم.

الدرس التطبيقي الثاني: في الاستثمار التربوي للقبلات

روي عنه،أنه ﷺ كان يُقبِّل زوجاته في رمضان وهو صائم[١]، ليس بغرض الشهوة هنا ولكن للتعبير عن مشاعر صدق وطهارة محبّته لهنّ بالدرجة الأولى، ولزرع جو المودة والتآلف في أعماق نفوسهن، وبث السكينة في أجواء الأسرة، وإذا كان هذا يحدث منه في رمضان، فإنه في غير رمضان يبلغ مداه، لأنه يجمع بين الحسنيين، ويرتقي بالعلاقة إلى قمة روحانيتها العاطفية والاجتماعية.

الدرس التطبيق الثالث: الإيثار التربوي للطرف الآخر

وكان ﷺ يكرم نساءه ويشعرهن بذلك في كل مناسبة، حتى على مائدة الطعام، ويوصي الزوجين بأهمية العناية بكل ما يُدخل السرور على صاحبه، ويقول: «.. **وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة ترفعها إلى في (فم) امرأتك**[٢]».وتأمّلي يا بُنيّتي العزيزة في الأثر النفسي العاطفي

(١) انظر البخاري.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

الكبير الذي تتركه مثل هذه الحركة التي تقوم بها الزوجة تجاه زوجها، أو يقوم بها الزوج تجاه زوجته، عندما يقدِّم أحدهما للآخر شيئاً يحبه، وخاصة إذا أحس الطرف الآخر بأنه قد أُثِرَ بذلك الشيء!

الدرس التطبيقي الرابع: في الترفيه عن النفس

وكان ﷺ يصطحب زوجاته معه في رحلاته وزياراته، ويرفِّه عنهن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، تعبيراً منه لهن عن حبه لهنّ، واهتمامه بهنّ، وتقوية لمحبتهنّ له، وارتباطهنّ به. كما روي أن جاراً له فارسياً كان طيّب المَرَق، دعاه إلى وليمة، فقال ﷺ: **وهذه؟ يقصد عائشة. فقال: لا. فقال عليه الصلاة والسلام: لا. فعاد فدعاه، فقال عليه السلام وهذه؟ فقال: لا فقال عليه الصلاة والسلام: لا. فدعاه الثالثة، فكرره له فأجابه عليه السلام بنفس الجواب، فقال الرجل: نعم في الثالثة. فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله**[1].

---

(١) رواه مسلم.

إن إشعار أحد الزوجين لصاحبه، بالقيمة والأهمية، عبر مثل هذه المواقف الاجتماعية الحية، يوثق المحبة بينهما ويؤججها، ويرتقي بها إلى أعلى مستويات الصدق والإخلاص والانسجام الممتع.

الدرس التطبيقي الخامس: في تلبية حاجات الطرف الآخر

وكان ﷺ يرغِّب الأزواج في تلبية حاجات بعضهم بعضاً، وإيثار ذلك على حظوظ النفس، بل وعلى بعض الواجبات الكفائية الكبرى أحياناً كالجهاد. كما يتضح ذلك من قوله ﷺ لعثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد تخلّف عن غزوة بدر الكبرى، بسبب مرض زوجته وبقائه معها للعناية بها: «**إن لك لأجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه**»[1].

وجاءه رجل يقول له: يا رسول الله، إني أريد أن أخرج للجهاد في سبيل الله، وقد تأهّب له المسلمون، ولكن زوجتي تريد أن تحج. فقال له: «**اخرج معها**»[2].

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

إن انتباه الزوجين إلى أوضاع وحاجات بعضهما البعض، والعمل المبكر والدائم على تلبيتها بكل صدق وحماسة، وبعيداً عن الاستثقال والتأفف والتذمر والمَنِّ، مما يؤجج المحبة بينهما، ويعزز الصدق والإخلاص في علاقتهما ببعضهما البعض، ويقوي الشعور بحاجة كل طرف إلى صاحبه، فيزداد كل منهما حرصاً على الآخر وارتباطاً به، وحنواً عليه.

الدرس التطبيقي السادس: في إدخال السرور على الطرف الآخر

وكان ﷺ يحرص دائماً على إدخال السرور على زوجاته، ولا يمنعهن من أي أمر يحقق لهن الراحة والنشوة والسعادة، بل يبادر إلى تلبيته بنفسه قبل طلبهن ذلك منهَ. كما نرى ذلك في دعوته السيدة عائشة رضي الله عنها للتفرُّج على بعض الألعاب البهلوانية التي كانت تُقدَّم من حين لآخر بالمدينة، حيث أقامها خلفه، ووضعت خدها على خده، في جو حميمي رائع، يبث الأمن والسعادة في النفس، وظلّت تتفرج حتى شبعت[1]!

(١) رواه البخاري ومسلم.

الدرس التطبيقي السابع: حرصه ﷺ على إدخال السرور على أهله

كان يحرص في كل وقت، في البيت وخارج البيت، ويعلّم المسلمين ذلك ويحرّضهم عليه بكل طريقة، وفي كل مناسبة. كما نرى ذلك مثلاً في مسابقته للسيدة عائشة رضي الله عنها. فقد كانت معه في سفر، فأمر الناس أن يتقدّموا عنهما قليلاً، وقال لها: **تعالي نتسابق!** فتسابقا فسبقته، والصحابة ينظرون! وفي سفر آخر كرّر معها ذلك بنفس الطريقة أمام جمع من الصحابة، فسبقها وأخذ يضحك معها مداعباً لها، وهو يذكّرها بسباقهما السابق ويقول لها: **هذه بتلك السبقة**[1]!

لهذا كانت المحبة بين النبي ﷺ وأزواجه محبة مثالية، لأن كل واحد منهم حرص على التعبير العلني عن محبته الصادقة لصاحبه، ولم يُخفها عنه، فكان لا بد أن تغمر حياتهم المودة والرحمة والبركة والسكينة، وهو ما يجب علينا نحن أن نفعله مع بعضنا البعض، حتى نؤجج مشاعر المحبة ونديمها، ونغمر

---

(١) رواه أحمد.

حياتنا الأسرية بالمودة والرحمة والبركة والسكينة.

وهو الجو الحميمي الذي يعيش فيه أولادنا، ويمتصون منه روح الصدق والمودة والرحمة والسكينة، فينشؤون بمشاعر صادقة وطاهرة نحو والديهم ومحيطهم الأسري والاجتماعي الواسع. وإذا قُدِّر لهم أن يتزوجوا مستقبلاً فإن المودة والرحمة والبركة والسكينة.. ستغمر حياتهم أكثر مما غمرت حياتنا، وسيستمتعون بها أكثر مما استمتعنا نحن، وستنالنا بركات دعواتهم وأعمالهم الصالحة، ونحن في عالم الحياة البرزخية، ننعم بما أعده الله للمؤمنين هناك من نعمة وكرامة «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».كما بشرنا بذلك رسول الله ﷺ باعتبارهم من زرعنا الدنيوي الصالح الذي لا ينقطع أجره وثوابه عنا بإذن الله، ما دمنا قد أحسنّا رعايتهم، واستثمرنا حياتنا في تربيتهم تربية رسالية صحيحة، كما جاء في الحديث الصحيح: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية. أو علم ينتفع به. أو ولد صالح يدعو له**»[1].

(١) رواه مسلم.

أهمية السماحة في المعاملة

ومما يؤجج صدق وطهارة مشاعر المحبة، ويبث المودة والرحمة والبركة والسكينة في الحياة الزوجية أيضاً، **سماحة التعامل بين الزوجين**، أي: حسن المعاملة ولطافتها ويسرها وليونتها وجماليتها، بحيث يحرص كل طرف على احترام مشاعر الآخر، وإشعاره بمكانته وقيمته، والبعد عن كل ما من شأنه أن يخدش هذه المشاعر، أو ينتقص من هذه القيمة والكرامة والمكانة.

فالاحترام والتقدير المتبادلين هما سر نجاح كل العلاقات بين البشر. وهو ما نبّه إليه القانون الكلي للعلاقات الاجتماعية في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت٤١/ ٣٤-٣٦].

فالسماحة إذن تشكل الأصل الثاني من الأصول الكبرى

للمحافظة على تأجيج صدق وطهارة مشاعر المحبة بين الزوجين، وبث المودة والرحمة والبركة والسكينة في حياتهما الزوجية الخاصة، والعائلية العامة، والاجتماعية الأعم. فإذا لم يُتقن كل من الزوجين آداب وأخلاقيات وفنون السماحة في المعاملة بينهما، فإنهما لن يستطيعا تعميق مشاعر المودة والرحمة بينهما، ولن يستطيعا من ثمّ توطين السكينة والبركة في بيتهما والمحافظة عليها.

فالحياة الزوجية تحتاج إلى التعامل بالحُسنى، واليسر، واللطف، والمكارمة، والتسامح، والعفو، والحلم، والإيثار، والبذل، والسخاوة، والقناعة، وإبداء الاهتمام، والتعاون، والبعد عن الغلظة، والأنانية، والشح، والطمع، والغيرة، والتحاسد، ونكران الجميل، وسوء الظن..

فالسماحة في المعاملة الزوجية خاصة، ومع الخلق عامة، قمة عالية من قمم التزكية النفسية، ومستوى متقدم من مستويات النضج الفكري والعاطفي والروحي، ومقياس أساسي من مقاييس الرقي السلوكي لدى الإنسان، ينبغي على

كل أحد أن يسعى جهده لتوطين نفسه عليه، لأنه إذا نجح في ذلك سيكون كالغيث أينما وقَعَ نفَعَ، وسيعظم مقامه بين الناس، وستتضاعف حسناته أضعافاً مضاعفة، كما مرّ في آية الدفع بالإحسان.

۞ ۞ ۞

دروس تطبيقية من المسامحة في الحياة النبوية

وأود هنا أن أقدّم لكما ولكل شاب مسلم مُقدم على الزواج، بل ولكل متزوجين، باقة أخرى من النماذج التطبيقية الرائعة في فقه المسامحة واللطافة في الحياة النبوية، وأثر ذلك في إشاعة أجواء المحبة والتراحم والسكينة في البيت النبوي، وفي كل البيوت التي انفتحت على الهدي النبوي عبر التاريخ.

الدرس التطبيقي الأول: في مواجهة الغيرة الزوجية

ففي صحيح البخاري، أن النبي ﷺ كان عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي كان النبي ﷺ في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: «**غارت أُمُّكُم**». ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في

بيتها فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسِرت صحفتها وأمسك المكسورة في بيت التي كَسرت.

فالنبي ﷺ راعى حالة الغضب التي كانت عليها السيدة عائشة رضي الله عنها، فتحمّل تصرفها العنيف غير السمح في هذا الموقف، ولم يجاريها فيه، وفضّل معالجة الموقف بغاية السماحة واللطف، دون أن يُهمل رد الحق لصاحبه الذي اعتُدي عليه. ولا شك أن النبي ﷺ في مثل هذا الموقف وبمثل هذا التصرف، كان يصدر عن علم عميق بخبايا النفس الإنسانية؛ في غرائزها وفطرها وتقلباتها المختلفة، التي يحتاج فهم ومواجهة كل موقف من مواقفها إلى تقدير خاص لظروفه وملابساته ومآلاته.

فأين هذا يا بنيّتي مما يُشاع ويُذاع في حياتنا الزوجية من ردود الأفعال اللفظية المهينة، والسلوكية العنيفة المؤذية، تجاه بعض تصرفات الأزواج والزوجات التي تتم تحت تأثيرات وعوارض نفسية وجسمية واجتماعية.. لا سلطان للإنسان عليها أحياناً! تصوري لو أن أحدنا فعلت زوجته أمامه مثل

هذا الفعل كيف سيكون رد فعله!؟ ثم تصوري لو أن النبي عليه الصلاة والسلام اتخذ موقفاً عنيفاً آخر غير الذي اتخذه، ماذا سيكون تأثيره التربوي؟ إنه سيثير حفيظتها ويدفع بها إلى التشنج والتعصب والإصرار على الخطأ، بينما كان تصرفه المتوازن سبباً في جعلها تراجع نفسها بهدوء، وتدرك خطأها وحدها، وهو أسلوب تربوي رفيع في مواجهة التشنجات.

الدرس التطبيقي الثاني: في مباركة المبادرة الزوجية

وفي البخاري أن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أخبرته أنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبي ﷺ ، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه قالت: أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي؟ قال: «**أوفعلت؟ قالت نعم. قال: أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك**».

فالرسول ﷺ لم يتدخل في شأنها الخاص، ولم يناقشها في الأمر، ولم ينزعج من تصرفها، لأنه يعلم أن ذلك حق من حقوقها الشخصية، بل سر بذلك، وبارك تصرفها، وشجعها عليه، ونبهها إلى أهمية صلة الأرحام ووضع الخير فيهم ابتداء،

باعتبارهم أولى بالمعروف. فأين هذا يا بُنيّتي مما يعتري اليوم كثير من المسلمين من الانزعاج والامتعاض والغضب، من تصرفات زوجاتهم أو أزواجهم، وحب (حشر أنوفهم) في كل صغيرة وكبيرة من حياتهم، مما يوتّر العلاقات ويشد الأعصاب ويصعِّب الحياة، وربما دفع بها إلى ما لا تُحمد عقباه من المعاملات الندية التي قد تنتهي بفك رباط الحياة الأسرية.

الدرس التطبيقي الثالث: في الانفتاح على الهوايات الزوجية

وفي البخاري أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمّعن منه فيسرِّبهن إليّ فيلعبن معي.

وفي البخاري كذلك أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعهما»، فلما غفل ﷺ غمزتهما فخرجتا.

فعلى الرغم من أنه ﷺ لم يكن منفتح النفس على ذلك المرح البريء، ولم يكن ذلك من اهتمامه، إلا أنه لم يحاول فرض خياراته ورغباته ومزاجه الشخصي على خيارات ومزاج ورغبات زوجاته، ما دام ذلك يتحرك في إطار المباحات، بل كان يدع لهن الحرية الكاملة في ممارسة هواياتهن وتلبية حاجاتهن الخاصة، بل كان يمنع كل من يريد أن يحرمهن من ذلك دون مبررات شرعية أو مصلحية واضحة وراجحة. وهذا من سماحته وحلمه وحكمته ﷺ في إدارة الشأن الأسري، وتوفير أجواء الراحة والسكينة والسعادة فيه.

قارني هذا يا بنيّتي بما نفعله نحن في أسرنا وفي علاقاتنا بأزواجنا وأولادنا، عندما نحرص على فرض مزاجنا وظروفنا واختياراتنا ورغباتنا عليهم، ونجبرهم على ذلك جبراً، ونصادر حرياتهم وحقوقهم، ونكبت تطلعاتهم، باسم الطاعة والسلطة الأبوية! فيتحملوننا حيناً من الوقت ثم ينفجرون في وجوهنا، وتتمزق العلاقات بيننا وبينهم، ويحل الخصام محل الوئام، والقلق محل السكينة في أسرنا!

الدرس التطبيقي الرابع: في مواجهة التوترات العائلية

وفي البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يحبُّ العسل والحلواء، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرتُ! فسألت عن ذلك: فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل فسقت النبي ﷺ منه شربة... إلى آخر الرواية..

إنه جو عائلي مليء بالمرح واللطف والسماحة من قبل النبي ﷺ تجاه زوجاته، فقد كان حليماً معهن، رحيماً بهن، صبوراً عليهن، غير معنِّتٍ لهن أو متعنت معهن، متجاوزاً عن أخطائهن، مساعداً لهن على تجاوز بعض مشكلاتهن الذاتية والعائلية. كما كنّ يبادلنه نفس الحرص، ويتعلمن منه أخلاق الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الحق.

الدرس التطبيقي الخامس: في الوفاء المثالي للعلاقة الزوجية

وفي البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت استأذنتْ هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان

خديجة فارتاع لذلك، فقال: **اللّهمّ هالة. قالت: فغرتُ..**

وفي رواية أخرى له كذلك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما غرتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرتُ على خديجة وما رأيتها. ولكن كان النبي ﷺ يُكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: «**إنها كانت وكانت.. وكان لي منها ولد**».

فها هنا دروس كثيرة، في مقدمتها حفظ ود رفيق العمر حياً وميتاً، والوفاء له، وعدم التفريط في حقوقه أو السماح لأحد بالنيل منه أو الانتقاص منه، وإشاعة محاسنه وفضائله لدى من لا يعرفها. والرسول ﷺ بهذا الوفاء المثالي للسيدة خديجة رضي الله عنها، يعطي درساً عظيما لكل زوج وزوجة في كيفية وفاء كل منهما للآخر في حضوره وغيبته، بحيث لا يترك أحداً يمس بسمعته، ناهيك أن يتجرأ هو عن المس بسمعة ومكانة صاحبه في غيبته خاصة، كما يفعل كثير من الأزواج والزوجات وراء ظهور بعضهما البعض، بل وأحياناً بحضورهما!

تصوري يا بنيتي عندما يبلغك أو يبلغ أبناءك أو أهلك بأن زوجك مدحك ولم يسمح لبعض أهله بالنيل منك، كيف يكون شعورك تجاهه؟ وكيف تكون علاقتك به؟ وليتصور الزوج كذلك عندما يبلغه أن زوجته أفضت في ذكر محاسنه، ودافعت عنه أمام أهلها، ولم تسمح لأحد أن ينال منه مايكره، كيف يكون شعوره نحوك؟ وكيف ستكون علاقته بك؟ إنها دون شك ستزداد الثقة بينكما وتتأجج المحبة، ويقوى حرصكما على بعضكما البعض.

الدرس التطبيقي السادس: في التكافل الخدمي العائلي

وفي البخاري أن عائشة رضي الله عنها سُئلت: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «**كان يكون في مهنة أهله؛ تعني خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة**».

وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد عن عائشة أنها سُئلت: ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: «**كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم**».

أين هذا التواضع، والتكافل المنزلي الرائع، مما يعيشه

بعض الأزواج مع زوجاتهم، من الاستكبار عليهن، والاستغلال والإنهاك لهن، والاستنكاف عن مساعدتهن والتخفيف عنهن؟ والرسول عليه الصلاة والسلام إذ يقوم بهذه الأدوار المنزلية يعلمنا كيف نتكافل، وكيف نتشارك في حمل الأعباء المنزلية، وكيف نتقرب من زوجاتنا ونشعرهن بذلك القرب عملياً؟ فيزددن بدورهن قرباً منا وحرصاً على خدمتنا، وهو ما يملأ الجو المنزلي رحمة وسكينة وسعادة.

إننا في حاجة يا بُنيتي إلى تغيير عادات كثيرة ليس فيها مروءة، تُسيء إلى عمق العلاقات الإنسانية الروحية التي يعلمنا الإسلام إياها من خلال التوجيه المعرفي والتطبيق العملي معاً. إنه ليس من المروءة أن يستنكف الرجل عن مساعدة زوجته في رعاية شأن المنزل وترتيبه، واعتبار ذلك شأناً نسوياً خالصاً، مع أن النبي ﷺ يعلمنا كيف نكون شفوقين على أهالينا، خدومين لهم، ولو سادت هذه الأخلاق في علاقاتنا الأسرية، لحفتها الرحمة والسكينة، ولغمرتها البركة.

ومع الأسف فإن هذه النظرة المستنكفة عن التشارك في

الخدمة المنزلية، تحولت إلى حالة نفسية وعرف اجتماعي يحمله حتى النساء في مجتمعاتنا.

وأذكر يا بُنيتي أنني شخصياً كنت أدخل على أمِّك رحمة الله عليها وأسألها: «ماذا يمكن أن أساعدك فيه اليوم؟ فتقول لي مستغربة ومداعبة: روح يا راجل خليك من شغل النساء! فلما أصر على معاونتها وتكلفني ببعض الشغل، فإنها سرعان ما تأتيني وتقول لي: يكفيك، خليني أكمل الشغل، روح اكتب أو اقرأ أو شاهد التلفاز!».

والعكس موجود كذلك، فإن بعض النساء يعشن بمنطق النِّدِّية مع أزواجهن، ويردن أن يكون كل شيء مناصفة بينهن وبين أزواجهنّ، مما يحوّل الحياة الأسرية إلى نقابة حقوقية متشاكسة، تسلب الحياة الزوجية سكينتها، وتفقدها طعمها وبركتها!

الدرس التطبيقي السابع: في القبول المتبادل للمراجعات الذاتية

وفي البخاري أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم

قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصحت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وإنّ إحداهنّ لتهجره اليوم حتى الليل!

فالمراجعة التربوية لا تضر بالعلاقة الزوجية، بقدر مايضر بها الكبت والاستبداد والتعنّت، والإصرار على فرض الرأي والموقف على الطرف الآخر، بشتى الأساليب التي كثيراً ما تنتهي إلى سلبية الطرف الآخر، ودخوله في دوامات النفاق الاجتماعي، أو تبني منطق الندية والمواجهة الذي يفضي إلى تقويض كيان العلاقة الزوجية.

وهكذا ينبغي أن تسود المسامحة والرفق بين المسلمين عامة وبين الأزواج منهم خاصة، وأن يتجنبوا كل ما فيه عنت أو تعنيت، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، حتى يستفيدوا من بركات الرفق، لأنه طريق الخير، ومَن حُرِمَ الرفق والمسامحة في أمره كله فقد حُرم الخير جلّه أو كلّه، كما جاء في حديث مسلم عن النبي ﷺ: «**إن الرفق لايكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**».

وفي البخاري كذلك أن رسول الله ﷺ قال: «**رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى**». فالسماحة في المعاملة مع الخلق، هي قمة النضج الفكري والروحي والسلوكي لدى الإنسان، ومؤهل عظيم للنجاح في الحياة الخاصة والعامة.

فاستمسكي يا بنيتي بالسماحة والرفق واللطف في المعاملة مع زوجك ومع أهله، وأعينيه على أن يبادلك نفس السلوك، لأنكما إذا نجحتما في تأسيس حياتكما العائلية على هذه القيم التسامحية، ستشيعان المودة والرحمة والسكينة بينكما، وسينعكس ذلك على محيطكما الأسري والقرابي والاجتماعي، وبذلك تحققان مقصداً أساسياً من مقاصد الحياة الأسرية وهو القدوة الاجتماعية المؤثرة، التي إذا اتسع نطاقها أفادت كثيراً في خدمة أهداف النهضة الحضارية للمجتمع والأمة.

سبيل دوام العشرة وتأجج المشاعر

قد تسألينني الآن يا ابنتي العزيزة عن سبيل إدامة العشرة الطيبة، وتأجيج مشاعر المودة والمحبة بينكما، وإشاعة أجواء السكينة الزوجية في كل جنبات البيت، حتى يكون بيتاً مسلماً نموذجياً مباركاً، مشعاً بالطمأنينة والسعادة، ومؤثراً فيما حوله من البيوت؟ فأقول لك ولزوجك الفاضل ولكل زوجين يطمحان إلى حياة أسرية مباركة، خادمة لنهضة المجتمع الأمة: إنّ ذلك كله مرتبط بالركن الرابع من أركان الحياة عامة، والحياة الزوجية بوصفها أساس لهذه الحياة خاصة، وهي الفكـرة الصحيحة، على أساس أن الأركان الثلاثة الأخرى؛ وهي الرجل والمرأة والطفل، يتوفران بشكل طبيعي بمجرد حصول العلاقة الزوجية، ويبقى العامل الأكبر في منح هذه العلاقة الزوجية أبعادها الروحية والأخلاقية والاجتماعية والحضارية المطلوبة، وهي الفكرة التي تؤسس هذه العلاقات الزوجية وتنظمها وترعاها.

الوعي بالدور المحوري للدين في الحياة

وباختصار أقول لكما ولكل شابين مؤمنين مقبلين على الزواج مثلكما: إن أصح وأصلح وأعظم فكرة تحقق دوام العشرة وتؤجج السعادة في محيط الأسرة وفي محيط المجتمع، هي الإســلام، إن جاز لنا استعمال هذا التعبير في حق الإسلام كدين إلهي موحى به.

فكما أن الله تعالى وضع نظماً سننية محكمة لعالم المادة هي نظم سنن الآفاق، ووضع نظماً سننية محكمة لعالم الأنفس هي نظم سنن الأنفس، وضع كذلك نظماً محكمة لتمكين الإنسان من الاستفادة المثلى من كل هذه المنظومات السننية، هي نظم سنن الهداية التي جاء بها الوحي الإلهي في القرآن والسنة الصحيحة.

فالإنسان بقدر ما يعي مقاصد هذا الوحي، ويستوعب نظمه العقدية والفكرية والمنهجية والعبادية والتشريعية والأخلاقية المختلفة، ويتمكن من استثمارها بأصالة وفعالية واطراد، في تنظيم حياته الذاتية والعائلية والاجتماعية، بقدر ما يتوافق ذاتياً، وينسجم اجتماعياً، ويتكامل كونياً، وتعظم فعاليته

الاجتماعية والحضارية، ويستمتع بحياته ويتذوق طعم بركتها، وفي ذلك جاء قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾[الجن ٧٢/ ١٧].

إن حركة حياتنا الأسرية خاصة والاجتماعية عامة، على خط العبودية والعالمية والإنسانية والكونية الذي جاء به الإسلام، هو الذي يعطي لحياتنا معنى، ويبث فيها روحية وأخلاقية وجمالية راقية، تجعلنا نقبل عليها، ونستمتع بها، ونستقوي بها على مواجهة تحديات معتركات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد المهيمنة على حياة البشر.

خطر اهتزاز مركز الدين في الحياة

ابنتي العزيزة: إن جل عنت البشر وشقاوتهم وقلة البركة والتوفيق في حياتهم، آتٍ من ضعف أو اضطراب وعيهم بسنن الله في الهداية التي أودعها الله سبحانه في كتابه وسنّة نبيه، ورشد الخبرة البشرية التي تناغمت مع ذلك وانسجمت مع بقية منظومات سنن الله في الآفاق والأنفس والتأييد.

والمسلمون يعانون من ويلات الإمعية والغثائية والتبعية الحضارية الذليلة، لأن وعيهم بسنن الله في الآفاق وسننه في الأنفس والهداية والتأييد قد اضطرب، واجتاحتهم جهالات وأوزار العادات والتقاليد والخرافات التي حلت محل الإسلام! فسلبتهم المعرفة السننية الصحيحة، وتركتهم في سكرتهم يعمهون! وهو ما حذّر منه القرآن في مواضع كثيرة منه، نكتفي منها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال ٨/ ٢٤-٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه ٢٠ / ١٢٣-١٢٤].

إن كل تنكب عن أية سنة من سنن الهداية في القرآن

والسنة ورشد الخبرة البشرية، معناه اهتزاز واضطراب في جانب من جوانب الحياة الأسرية والاجتماعية، ومن ثم انكماش وانحسار في مساحات المودة والرحمة والسكينة والبركة في هذه الحياة. فالمودة والرحمة والسكينة والبركة والإشعاع الاجتماعي يكون بقدر الوعي بسنن الله في الهداية أولاً، وبقدر الالتزام العملي البصير بهذه السنن ثانياً.

دستور الحياة الزوجية

ابنتي العزيزة: وعلى هذا الأساس، فإن الحياة الزوجية، كما الحياة الاجتماعية والسياسية والحضارية.. كلها تحتاج إلى دستور موضوعي متكامل ينظم الواجبات والحقوق والعلاقات، ويضع الجزاءات العادلة المتوازنة. وإلى أنظمة عقدية وفكرية وتربوية تنظم التصورات، وتصحح المفاهيم، وتزكي النفس، وترقِّي السلوك، وتهذب الحياة الاجتماعية، وكل ذلك لا نجده على كماله إلّا في الإسلام، لأنه وضع إلهي يستجيب بشكل موضوعي متكامل لكل أشواق النفس، وحاجات العقل، وضرورات الحياة.

فمن أراد أن يؤسس لحياته الزوجية خاصة، والاجتماعية عامة، قاعدتها الفكرية والروحية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية المتينة، فعليه أن يأخذ حظه الضروري من الوعي برؤية الإسلام لله والكون والإنسان والحياة، من مصادرها الصحيحة، التي تصله بعمق هذه الرؤية، وبجوهر مقاصدها في الخلق والحياة، وبثوابت منهجها في الفهم والتمثُّل والحركة، وتبتعد به عن التجزيئية والحرفية والتنافرية في الفهم والتمثل والحركة.

أخطار الوعي المزيف بالإسلام

ابنتي العزيزة: إن كل ما نراه ونعيشه في حياتنا الخاصة والعامة؛ من ازدواجية في السلوك، وتنافر واضطراب في العلاقات، وضعف في الأداء، وغثائية حضارية مذلة، ناجم عن التجزيئية والحرفية والحدية[1] والتنافرية.. في فهم الإسلام

(١١) أقصد بالحدية هنا الوثوقية الأحادية الصارمة، التي تعتقد بأنها تمتلك الحقيقة وتحيط بها، وأنها وحدها الوصي الشرعي عليها، المفوض بمعايرة ما عداها والحكم عليه وتقويمه.

وتمثُّله، والحركة الاجتماعية والحضارية به، وما لم نتجاوز في علاقاتنا به، منطق التجزيئية والحرفية والحدية والتنافرية، فلن نستطيع أن ننفذ إلى عمق روحانيته، ولا يمكن أن نستوعب مقاصده في الخلق، ولن نتمكن في النهاية من تأسيس الوعي بثوابت منهجه في الفهم والتمثل والحركة، وستظل علاقتنا به علاقة سطحية باردة جزئية تنافرية مرتبكة، لا تقوى على منحنا الدفع الفكري والروحي والسلوكي الفعال، الذي يغير حياتنا في اتجاه التوافق الذاتي، والانسجام الاجتماعي، والتكامل الكوني، والتأثير في حركة التدافع والتداول الحضاري في عالمنا وعصرنا، باعتبارنا أمة وسطاً شاهدة على الناس، كما حدّد ذلك القرآن، رسالتنا في العالم في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة٢/ ١٤٣].

إن الإسلام - يا بنيتي - يعاني من قصورٍ واضطرابِ الفهم له، لدى عموم الأمة. لقد حجبته أمزجة وأهواء، وعادات وتقاليد، وأعراف ومصالح، وأوضاع شاذة غير

سوية.. تنتسب إليه، وتتدثر به، وتحمل اسمه، وتحافظ على استمراريتها بادعاء خدمته وحراسته! إنه دين مُصادَرُ الحق في إدارة الشؤون الخاصة والعامة لمن ينتسبون إليه!؟ لذلك فإن فك الحصار عنه، وإنهاء المصادرة لحقه، وفسح الطريق أمامه، لينساب مثل الهواء والشمس والماء في حياة الناس عامة، هو المدخل الصحيح لعودة الروح والانسجام والقوة إلى حياتنا الفردية والأسرية والاجتماعية، وهو ما يجب أن يعمل من أجله كل واحد منا، وأن يستثمر فيه وقته وجهده وإمكاناته إلى أقصى ما يستطيع.

ابنتي العزيزة: تأملي معي في هذا السؤال الذي طرحه عليّ أحد النرويجيين، حضر معي دورة تعريفية بالإسلام، استغرقت أربعة أشهر تقريباً، كنا نلتقي فيها مرة في الأسبوع، وتناولنا فيها لمحة شاملة ومركزة عن الإسلام، ثم لمحة مركزة عن علاقة المسلمين بالإسلام، وردود عن الشبهات التي تطرح في الغرب حول الإسلام والتاريخ الإسلامي، وقرَّر بعدها أن يعتنق الإسلام. فقد سألني في إحدى الجلسات

الأخيرة، بعد أن شرد ملياً، وقال كالمستغرب أو المحتار أو غير المصدق لما كان يسمعه مني: هل المسلمون يدرسون ويعرفون ما قلته في هذه الجلسات عن الإسلام؟! وهل ما قلتموه لي عن الإسلام هو الإسلام ذاته؛ في أصله ومقاصده، أم أنها الصورة التي تريدونها أنتم أن يعرفها الناس عن الإسلام؟؟!

ولقد أدركت مغزى سؤاله الذي يسكن نفوس كثير ممن يدرسون الإسلام ويصطدمون بواقع المسلمين السلوكي المفارق لحقائق الإسلام ومقاصده. فقد كان منجذباً إلى روحية الإسلام وجماليته وأخلاقيته وشموليته وواقعيته وتكامليته، وقال: إنّه يشعر أنّه مسلم منذ صغره دون أن يعرف ذلك، لأن الصورة التي عرضتموها عليّ عن الإسلام، هي ما أنا عليه، وما أريده، ولا أريد غيره، وأعتقد أن جميع الناس الأسوياء يريدونه لأنفسهم . ولكن واقع المسلمين يجعله حائراً ويثير أمامه علامات استفهام مقلقة، تذهب به إلى حد الاعتقاد أنّ ما نقوله له هو مجرد محاولة منا نحن المسلمين لتزيين صورة الإسلام الحقيقي، والتغطية على ما فيها من قبح!! كما تعبّر عن ذلك

سلوكات المسلمين وواقع حياتهم المتخلف والمنفر! وهو ما عبر عنه سؤاله السابق بكل وضوح ومرارة.

فروحية الإسلام وجماليته وأخلاقيته وقوته الذاتية، محجوبة، يا بنيتي، عن الناس، بطبقات الجهل المركبة، وبسوء التمثُّل الذاتي له، وبقصور العرض لحقائقه على الناس، التي تتميز بها علاقة المسلمين به! لقد أصبح كثير منهم فتنة للمسلمين وغير المسلمين في طريق نفاذهم إلى حقيقة الإسلام وعمقه وجماليته، والانتفاع بخيريته! لذلك علمنا القرآن هذا الدعاء العظيم: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ [الممتحنة ٦٠/ ٥]. الذي يجب ألّا يكون مجرد كلمات نتلوها ونتمتم بها، بل يجب أن يكون حركة فكرية وتربوية أوَّابة جادة، تغير أوضاعنا، وتجدد نفوسنا وفعاليتنا، على طريق القدوة الإسلامية النموذجية المؤثرة.

أهمية الرؤية الوسطية للإسلام

ابنتي العزيزة: إن وحدة ووسطية الرؤية الفكرية والمنهجية للإسلام، مقوم جوهري من مقومات الحياة عامة، والحياة

الزوجية خاصة، وسبب قوي من أسباب الانسجام والتكامل والسكينة والبركة في الحياة الأسرية، لأن الرؤية المشتركة أو المتقاربة في فهم الإسلام ومنهجيته في تلبية الحاجات ومواجهة التحديات، توجِد الانسجام الأسري، وتحوِّل تعدد الرؤى واختلاف وجهات النظر أحياناً، إلى تنوع تكاملي، يُخْصِبُ الموقف العائلي ويرفع مستوى التوفيق والفعالية فيه.

فتقارب رؤية طرفي العلاقة الزوجية للإسلام، وفهمهما له، ولرسالته في الحياة، ولدوره في تنظيم الشأن الأسري، يشكل دعماً كبيراً للاستقرار العائلي. لأن ذلك يقلل من الخلافات، ويحسم الكثير من التباينات، بالنزول عند أحكامه، والتحري لمقاصده، والوعي بمنهج تطبيقها في واقع الحياة المعاصرة. بينما يؤدي التباين في الفهم إلىٰ الاختلاف التنافري، الذي يضر بقيم الاحترام والتقدير المتبادل بين طرفي العلاقة الزوجية، ويهز ثقتهما في بعضهما البعض، خاصة إذا كانت أرضية التباين والاختلاف مبنية على منطق الأحادية الحدية الصارمة في فهم أحكام الدين وتصور مقاصده، واعتبار كل

طرف أو أحدهما، نفسه محيطاً بالحقيقة ومحتكراً لفهمها وتمثُّلها، حيث يعسر عنده التفاهم واللقاء، وتصبح استمرارية العلاقة الزوجية في خطر!

الوسطية في تكامل فهوم أفراد الأمة وجماعاتها وأجيالها

ابنتي العزيزة: إن الوعي الصحيح بالإسلام يوفر لنا قوة تفاهم وانسجام وتماسك غير عادية، فوطِّني نفسك على الوسطية الإسلامية المنفتحة على رشد الخبرة البشرية، باعتبار هذه الوسطية هي المصب الحقيقي للوعي بسنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وسننه سبحانه وتعالى في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد. ولا تنجرفي في الروافد الجزئية المتنافرة، واعلمي أن الخير بثه الله سبحانه وتعالى في أفراد الأمة وجماعاتها وأجيالها جميعاً، ولا يقوى فرد أو جماعة أو حتى جيل وحده على احتكار فهم حقيقة الإسلام، وحبس الإسلام والمجتمع والأمة فيها! ومن زعم ذلك أو ادعاه فقد كلّف نفسه ما لا تطيق، وجازف بنفسه، وهو ما أدركه جهابذة العلم والوعي والحكمة، الذين كان لسان حالهم جميعاً يقول: «رأيي

صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»، لأنهم يدركون، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد في المسند: «إنّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق».

كما يدركون كذلك: «إنّ الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدّد لهذه الأمة أمر دينها»، كما جاء في الحديث النبوي عند أبي داود. فلا يتكلفون ركوب متاهات احتكار الحقيقة، بل يعد كل واحد منهم نفسه رافداً من روافد هذه الحقيقة في مجال معين من مجالات المعرفة والخبرة والحكمة.

ولذلك فإن الإمام مالكاً رضي الله عنه، لما طلب منه الخليفة أبو جعفر المنصور أن يجعل كتاب الموطأ قانوناً عاماً للدولة، رفض الإمام مالك ذلك بشدة. احتراماً لسنة الاختلاف الاجتهادي، وتوسيعاً لدائرة حرية الرأي في المجتمع، وتنويعاً وتعديداً للخيارات الاجتهادية أمام أفراد المجتمع ومؤسسات الدولـة . ولما سأل بعض الفقهاء الإمام أبا حنيفة ﷺ : هل ما انتهيت إليه من آراء هو الحق الذي لا شك فيه؟ قال بلا تردد: «لا أدري! لعله الباطل الذي لا شك فيه»!

تأمَّلي هذا الفقه العميق في دين الله، وفي منهج التعاطي معه، عند الأئمة الكبار، وقارنيه بمن هم دونهم من طلبة العلم، وحفظة المتون، ونقلة المعارف الجزئية، وكيف يتصدى بعضهم لمسائل المعرفة والفكر والمنهج والحركة والصراع السياسي والحضاري.. بمنهجية حدية حاسمة، تزعم أنها تملك القول الفصل، والكلمة الأخيرة.. فتبدِّعُ وتفسِّق وتجهِّل، وتضلِّل وتكفِّر وتخوِّن وتنفِّق كل مخالف! مع أنها تقرأ في السنة النبوية قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم: «أيّما امرئ قال لأخيه : يا كافر. فقد باء بها أحدهما. إن كان كما قال. وإلا رجعت عليه».

فوطّني نفسك، يا بنيّتي، في المنهج الوسط، واعرفي للأئمة والعلماء والمفكرين، والدعاة الأصلاء المتواضعين المتكاملين فيما بينهم، حقهم وفضلهم ومقامهم، وأحبيهم، وخذي منهم وقرّي عيناً، ولا تلتفتي إلى المبغضين لهم، والمشنّعين بهم، والمشوّشين عليهم، فإنهم ليسوا على شيء من المنهج والوعي المتكامل بسنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد،

وسننه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، مهما رأيت منهم من الحفظ للمتون، والاستظهار للنصوص، والغيرة على الدين، والإخلاص له! لأن ذلك كله لا يغني عن المنهج في الفهم والالتزام والأداء والتبليغ شيئاً. والمنهج يقتضي أن يكون عمل المسلم خالصاً وصواباً، لأن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل كذلك. كما قال الإمام الفُضيل بن عياض رحمة الله عليه.

ويكفيك أن تتأملي في هذه الكلمة الرائعة لابن عساكر وهو يحذّر من الانتقاص من العلماء الرساليين، ويوصينا بالأدب معهم باعتبارهم ورثة المهمة النبوية والأمناء على استمراريتها في البشر، لتعلمي كم هو خطير وشنيع ثلب العلماء، والانتقاص منهم، وحرمان الناس من الاستفادة منهم. يقول: «اعلم يا أخي - وفقني الله وإياك لمرضاته وجعلني وإيّاك ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته - أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب، ابتلاه الله قبل موته بموت القلب».

وقد صدق رحمة الله عليه، فقد استوحى في ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»[1].

ولا شك أن العلماء الرساليين هم طليعة أولياء الله، وأمناؤه على وحيه بعد أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فمن آذاهم أو عاداهم فقد بارز الله بالحرب، وإن الله منتقم منه لا محالة إن لم يتدارك نفسه بتوبة صادقة.

من هنا ينبغي لنا ، يا بُنيتي، أن نحترم كل العلماء العاملين، وأن نحبهم ونوقرهم ونجلهم، وأن نقدر جهودهم

(١) رواه البخاري رقم ٦٥٠٢.

واجتهاداتهم، وأن نأخذ من كل أحد منهم أحسن ما عنده، بحسب فهمنا وتقديرنا وحاجتنا، دون تعصب لأحد أو ضد أحد منهم، خاصة وأن العلماء كالأطباء المهرة الحاذقين، يعطون لكل شخص ما يناسبه من الدواء.

اليسر والمرونة جوهر الوسطية الإسلامية

ابنتي العزيزة: ومن خلال دراساتي ومعايشتي الطويلة والمستمرة للقرآن والسنة وفقه السيرة النبوية، وتأملاتي في سير الأئمة الرساليين الكبار، ومعاشرتي لأصناف وطبقات كثيرة من الخلق، وجدت بأن اليسر والرفق والمرونة المنهجية المنضبطة، هي جوهر الوسطية الإسلامية، وهي سر القوة الضاربة في الإسلام، وأساس قدرته على التأثير والمقاومة والثبات، واختراق الأزمنة والأمكنة عبر التاريخ.

إن اليسر والرفق والمرونة المتوازنة، علامة بارزة من علامات استواء النضج الفكري والروحي والسلوكي عند الإنسان، وامتلاكه لزمام المنهج الأكثر أصالة وفعالية على الإطلاق، لأن الناس جُبلوا على حب واحترام من أحسن

إليهم، وبُغض من أساء إليهم والنفرة منه. وقديما قال الشاعر:

أحسِن إلى الناس تستعبِد قلوبهم

فطالما استعبَد الإنسانَ إحسان

فمن وفق إلى اليسر والرفق والمرونة المنهجية، في تعاطيه مع الإسلام، فقد أمسك بسر عظيم للتوازن الذاتي، والانسجام الاجتماعي، والفعالية الإنجازية. وهو ما أرشدنا إليه حديث نبوي جليل رواه البخاري، وجاء فيه قول النبي ﷺ: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلّا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة». وهو ما جسده ﷺ في حياته وفي علاقاته بغيره من الناس، كما يظهر ذلك في وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمنهج النبي ﷺ بقولها: «ما خُيِّر النبي ﷺ بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ما لم يأثم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمات الله، فينتقم لله»[1].

(١) رواه البخاري رقم٦٧٨٦ .

وفي القرآن الكريم جاء التنويه بهذه القيمة الأخلاقية والسلوكية والمنهجية غير العادية في الوصول إلى القلوب، وبناء العلاقات في حياة النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة٩/ ١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران٣/ ١٥٩] فالرفق واليسر واللين واللطف والبعد عن الغلظة والفظاظة.. هو الذي جمع عليه قلوب الناس، ومنحوه ثقتهم، وأسلسوا له قيادهم، ففجر طاقاتهم وعبقرياتهم في بناء مجتمع وأمة وحضارة عالمية إنسانية كونية غير مسبوقة .

وقد فقه عنه ورثته من العلماء بعده، هذا البعد الأساسي في المنهج، والتزموه في حياتهم، وفي علاقاتهم، ووجهوا إليه أجيال المجتمع والأمة، فقال الإمام الجليل سفيان الثوري

رحمه الله، وهو يؤكد على بعد عميق في المنهج، وينبه إلى صفة فارقة في العلماء الربانيين: «إنما الفقه: الرخصة من ثقة، أما التشديد فيُحسنه كلّ أحد»!

فالتشديد والحرفية والحدّية والتجزيئية، والذهول عن مقاصد الشرع ومصالح الخلق، مفردات منهجية لا تتماشى مع روح الشريعة وسماحتها ويسرها، بل تناقضها وتضر بها، عندما تصورها للناس بأنها تكلفهم ما لا يطيقون، وبأنها تضيّق عليهم حياتهم، وتفوت عليهم مصالحهم.

۞ ۞ ۞

دروس تطبيقية في الرفق و اليسر والمرونة المنهجية المنضبطة

ابنتي العزيزة: بودي الآن، أن أضع بين يديك مجموعة من الدروس التطبيقية النموذجية في الرفق واليسر والمرونة المنهجية المنضبطة، المجسدة لروح الوسطية الإسلامية في فهم الإسلام، وفي تمثُّله الذاتي، وفي الحركة الاجتماعية المتوازنة الفعالة به، كما تتجلى في حياة النبي عليه الصلاة والسلام. وسأختار هذه النماذج التطبيقية من المحيط العائلي خاصة، انسجاماً مع موضوع هذه الرسالة المختصرة.

فالوسطية الإسلامية ليست نزوعاً متكلفاً مستمراً نحو عزائم الأمور، وليست تتبعاً انتقائياً للرخص، وتقهقراً مستمراً بالالتزام إلى سفوحه الدنيا، كما أنها ليست توفيقاً تلفيقياً مصطنعاً بينهما، بل هي أخذ بالعزيمة في موضع، وإعمال للرخصة في موضع، وتأليفاً منهجياً منضبطاً بين الحاجات

والضرورات والإمكانات والمآلات والأولويات بشكل مستمر، يجعل حياة المسلم الذاتية وحركته الاجتماعية تدوران في نطاق المشروعية باستمرار، وأداءه الفكري والسلوكي والاجتماعي يتجه نحو الأصالة والفعالية والاطراد بشكل دائم.

الدرس التطبيقي الأول:في ترشيد الوعي بسنة المد والجزر في حركة الالتزام

قال حنظلة الأسيدي: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قُلت: نافق حنظلة! قال:سبحان الله ما تقول؟! قال: قلتُ:نكون عند رسول الله ﷺ يُذكرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فوالله إنّا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟». قلت:يا رسول الله نكونُ عندك تُذكرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواجَ والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، فقال رسول

الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عندي من الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرشكم وفي طُرقكم، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعة»[1].

فلأن حركة الحياة محكومة بسنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد على الدوام، تخضع هذه الحركة الحياتية للمد والجزر الطبيعي في فعالية الأداء، التي تبلغ أحياناً مستويات نموذجية قصوى، وأحياناً أخرى مستويات نموذجية، وحيناً ثالثاً تتراجع إلى ما دون ذلك، وهكذا تستمر حركة الحياة في استجابتها لحاجات الابتلاء وتحديات التدافع والتداول من دون أن تخرج من دائرة المشروعية، وهو ما أوضحه هذا الحديث النبوي بدقة.

فالوسطية تعني أن تتوازن حياة الفرد والجماعة والمجتمع والأمة بشكل مستمر، وهذا التوازن قد يبلغ مستويات نموذجية قصوى في أصالته وفعاليته واطراديته، وقد ينزل عن ذلك قليلاً إلى مستوى نموذجي، وأحياناً أخرى قد يتدنى إلى

(١) انظر صحيح مسلم.

ماهو أقل نموذجية، بحسب ما يحيط بحركة التدافع من ظروف وملابسات وتحديات. ومن لا يدرك هذه الحقائق يدخل في دوامات الإحباط والاستسلام والسلبية، أو يكلف نفسه ما لا تطيق ويفضي به الأمر إلى نفس النتيجة في نهاية المطاف.

الدرس التطبيقي الثاني: في النهي عن حرمان النفس من حظوظها في الحياة

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا:وأين نحن من النبي ﷺ ، قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأُفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني»[1].

(١) انظر صحيح البخاري.

فالشريعة المستندة إلى علم محيط بطبائع الخلق، وبسنن الله في الحياة، تأبى هذا التزهد والكبت، لما فيه من حرمان للنفس من حظوظها بل وحاجاتها الضرورية في الحياة من ناحية، واعتداء على الحق الاجتماعي من ناحية أخرى، لأن من يحرم نفسه من حقوقها الطبيعية لا يمكنه أن يتوازن لا ذاتياً ولا اجتماعياً، ومن ثمّ لا يمكنه أن يشتغل بكل طاقاته، وهو ما رفضه الرسول عليه الصلاة والسلام هنا بكل وضوح وحسم، ونبّه إلى أن ذلك مخالف لسنن الله في خلقه.

الدرس التطبيقي الثالث: في الاعتراف بخطورة التشديد على النفس

ففي البخاري أن عبد الله بن عمرو قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كنته فيسألها عن بعلها فتقول: نِعْمَ الرجلُ مِن رَجُل لم يطأ لنا فراشاً ولم يفتِّش لنا كَنفاً منذ أتيناه. فلما طال ذلك عليه ذَكَر» للنبي ﷺ فقال: «القني به، فلقيته بعد، فقال: كيف تصوم؟ قال: كل يوم. قال: وكيف تختم؟ قال: كل ليلة. قال: صُم في كل شهر ثلاثة واقرأ القرآن في كل شهر. قال: قلت: أُطيق أكثر من ذلك، قال: صُم ثلاثة أيام في الجمعة،

قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: أفطر يومين وصم يوماً، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: صم أفضل الصوم، صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة». فليتني قبلتُ رخصة رسول الله ﷺ، وذاك أني كبرت وضعفت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار، والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى، وصام مثلهن،كراهية أن يترك شيئاً فارق النبي ﷺ عليه.

وفي رواية عند مسلم قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله بن عمرو بلغني أنك تصوم النهار وتقوم الليل، فلا تفعل فإن لجسدك عليك حظاً ولعينك عليك حظاً وإن لزوجك عليك حظاً، صُم وأفطر،صُم من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صوم الدهر. قلت: يا رسول الله إن بي قوة،قال: فصم صوم داود عليه السلام، صُم يوماً وأفطر يوماً». فكان يقول: يا ليتني أخذتُ بالرخصة.

فها هنا دروس تربوية بالغة الأهمية في الوسطية

الإسلامية، ودور الرفق واليسر والمرونة المنهجية المنضبطة فيها. فقد نبّه النبي ﷺ إلى أهمية الرفق بالنفس، والحذر من تكليفها بما يرهقها، لأن في إرهاقها إضعاف لفعاليتها الذاتية من ناحية، وإضعاف لفعاليتها الاجتماعية من ناحية أخرى، بما يحدث من تفريط في أداء حقوق الآخرين بالوجه المطلوب، وفي مقدمة أصحاب الحقوق شريك الحياة الزوجية. وقد اعترف ابن عمرو ﷺ بمدى الحاجة الملحة إلى المزاوجة المنضبطة بين العزائم والرُّخص في حركة الالتزام حتى لا يضيع حق أو واجب. وذكر الكثير من العلماء المحققين أن الأخذ بالرخصة في وقتها أخذ بالعزيمة، والتفريط فيها تفريط في العزيمة، وهذا من يُسر الإسلام وسماحته وتأكيده على الفعالية الاجتماعية باستمرار.

الدرس التطبيقي الرابع: في الموازنة بين الرغبات الذاتية وحقوق الشراكة الزوجية

ففي سنن أبي داوود أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن زوجي صفوان بن المعطل يضربني

إذا صليت، ويفطرني إذا صمت، ولا يصلي صلاة الفجر حتى تطلع الشمس! وصفوان عنده. فسأله عما قالت، فقال: يارسول الله، أما قولها يضربني إذا صليت، فإنها تقرأ بسورتين وقد نهيتها، قال: فقال: لو كانت سورة واحدة لكفت الناس، وأما قولها: يُفطرني فإنها تنطلق فتصوم وأنا رجل شاب فلا أصبر، فقال رسول الله ﷺ يومئذ: لا تصوم امرأة إلّا بإذن زوجها. وأما قولها: إني لا أصلي حتى تطلع الشمس، فإنّا أهل بيت قد عُرف لنا ذاك لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس، قال: فإذا استيقظت فصل.

فالمواءمة بين رغبات النفس وطموحاتها في الالتزام العالي من جهة، وبين حاجات واستطاعات شريك الحياة الزوجية من جهة أخرى، أمر يقع في صميم الوسطية الشرعية، ولا يمكن تحقيقه إلّا عبر الرفق واليسر والمرونة المنهجية المنضبطة. وقد أقر رسول الله ﷺ في الواقعة السابقة ضرورة هذه المواءمة حتى يأخذ كل طرف في العلاقة الزوجية حقه ويستمتع بحظه من الحياة، وبالتالي يشتغل بكامل طاقته الاجتماعية.

الدرس التطبيقي الخامس: في نور المرونة المنهجية المنضبطة

ففي سنن أبي داوود أن أبا ذر قال: إني اجتويت المدينة، فأمر لي رسول الله ﷺ بذود وبغنم، فقال لي: «اشرب من ألبانها..». فكنت أعزب عن الماء ومعي أهلي فتصيبني الجنابة فأصلي بغير طهور، فأتيت رسول الله ﷺ بنصف النهار وهو في رهط من أصحابه وهو في ظل المسجد، فقال: «أبو ذر!». فقلت: نعم، هلكت يا رسول الله، قال: «وما أهلكك؟». قلت: إني كنت أعزب عن الماء ومعي أهلي فتصيبني الجنابة فأصلي بغير طهور. فأمر لي رسول الله ﷺ بماء فجاءت به جارية سوداء بعسٍّ يتخضخض، ما هو بملآن، فتسترتُ إلى بعيري فاغتسلت ثم جئتُ، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إن الصعيد الطيب طهور وإن لم تجد الماء إلى عشر سنين، فإذا وجدت الماء فأمسه جلدك».

وقريب من هذا ما رواه أبو داوود من أن جابراً قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟

فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات! فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك فقال: «قتلوه! ألّا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العيّ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده».

هكذا يعطي الوعي الوسطي في الإسلام، مرونة منهجية منضبطة، تتيح للمسلم المحافظة على توازنه الروحي والنفسي والاجتماعي، في كل الظروف والحالات، وتخرجه من دوامة القلق والارتباك، وتجنبه أخطار الممارسات الخاطئة في حق نفسه وحق غيره. فالدين في ذاته يسر وسماحة وسعة، ليس فيه عسر ولا تحرج أو إرهاق، وإنما التعنت والتعسير والإرهاق يأتي من قصور الوعي بالمرونة المنهجية المنضبطة في فهم مقاصده وإجراء أحكامه في واقع الناس.

وفي صحيح مسلم أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سُئلت عن وتر رسول الله ﷺ؛ كيف كان يصنع في الجنابة؟ أكان يغتسل قبل أن ينام أم ينام قبل أن يغتسل؟ قالت: كلّ ذلك قد كان يفعل؛ ربما اغتسل فنام، وربما توضأ فنام، فقال

السائل: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة. والسعة ثمرة الوعي بأصول اليسر والرفق والمرونة المنهجية المنضبطة التي يتميز بها الإسلام. وهو ما يجعلنا نقرر باطمئنان بأن كل تشدد أو مغالاة أو تسيب وتفريط، يعتبر مجافياً لجوهر الدين ومضراً به وبالحياة.

الدرس التطبيقي السادس: في رفض تزهيد شريك الحياة في حقوقه العاطفية

ففي البخاري أن النبي ﷺ آخى بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا! فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال: كُل، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نَم،فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نَم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً، فأعطِ كلّ ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر

ذلك له فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»[1].

فانظري يا بنيتي العزيزة إلى فهم سلمان ﷺ العميق للوسطية الإسلامية، وكيف أنكر على أم الدرداء رضي الله عنها تبذلها وعدم عنايتها بأناقتها البدنية والمظهرية عامة، كامرأة يفترض فيها أن تكون أكثر أناقة واستمتاعاً بروحية الجمال، وما أكثر ما يزهِّـد المظهر غير الأنيق طرفي العلاقة الزوجية في الإقبال على بعضهما البعض، ويفتح عليهما أبواباً واسعة للوسوسة والغواية الشيطانية.

كما أنكر سلمان على أبي الدرداء ﷺ مبالغته في العبادة الروحية البحتة، والزهد في العبادة العاطفية والاجتماعية، التي هي مقصود العبادات الروحية؛ إذ الإنسان يستعين بقوة إيمانه ليحقق أصالة وفعالية واطرادية عبوديته لله تعالى، عبر قدرته على استثمار سنن الله تعالى في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، في الاستمتاع الأمثل بحياته أولا، والمشاركة الفاعلة

(١) البخاري رقم ١٩٦٨.

في تحقيق الاستمتاع الاجتماعي الواسع بها ثانيا، وهو ما أقره عليه رسول الله ﷺ.

ابنتي العزيزة: لا شك أن من يتأمل هذه الأمثلة والوقائع الحية، يدرك جوهر الوسطية الإسلامية، ويستيقن بأن لب هذه الوسطية هو الرفق واليسر والمرونة المنهجية المنضبطة، التي تجعل المسلم يعيش دينه براحة واطمئنان وسلاسة وتوازن، متقلباً بين سعة عزائمه ورخصه، فلا يرتبك ولا يقلق ولا يصيبه الحرج والعنت في ذاته، كما لا يكون سبباً في تعنّت أو أذية غيره، وفي مقدمتهم شريك حياته.

أهمية الوعي بالمنهج في الفهم والتمثل الوسطي للإسلام

ابنتي العزيزة: ربما تسأليني الآن عن السبيل إلى هذا الرفق واليسر والمرونة المنهجية المنضبطة، التي تحقق لك الوسطية في فهمك ومواقفك وتصرفاتك وعلاقاتك.. فأقول لك: إنّ ذلك كله مرتبط بالمنهج؛ وعياً بمعطياته أولاً، وقدرة على استثمار هذه المعطيات بكفاءة، في تحقيق الفهم الصحيح، والتعاطي الفعال مع حركة الحياة ثانياً.

المنهج روح الوعي

فإن المنهج كما تعرفين، يشكل باستمرار روح المعرفة، وجوهر الوعي، ولب الحكمة، وشرط الفعالية الاجتماعية، لما يمنحنا إياه من قدرات منهجية منضبطة في الرصد والتحليل والتفسير والفهم والاستشراف والتطبيق أو الإنجاز الصحيح. وقد تبين لي من خلال قراءاتي ومتابعاتي لحركة الواقع الفكري

والاجتماعي، أن قصور الوعي المنهجي يقف وراء الكثير من مظاهر السلبية والاضطراب والتنافر والاهتلاك واللافعالية، في حياة الأفراد وحركة المجتمع والأمة، وأن استعادة الحركة الاجتماعية لأصالتها وفعاليته مرهون بالوعي المنهجي.

فالمنهج هو الذي يخرج موقفنا الفكري والسلوكي والاجتماعي.. من الارتهان للجزئية التنافرية، والانتقائية التلفيقية، والحرفية الحدية، والوثوقية الإقصائية، ويصله بالمعطيات الكلية التكاملية، والمقاصدية المنضبطة، والإبداعية المتجددة، التي تفتح أمامه آفاق الأصالة والفعالية والاطراد.

أهمية الوعي بنسبية إدراكنا للحقيقة والصواب

وفي مقدمة معطيات المنهج، يا بنيتي العزيزة، الوعي بنسبية إدراك الحقيقة والصواب، فيما نذهب إليه من آراء، أو نستقر عليه من مواقف، أو نتبناه من مبادرات واجتهادات فردية أو جماعية، لأن سنة الله اقتضت أن يكون: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾.

أهمية الوعي بهامش الذاتية في فهمنا وفي أحكامنا

ثم الوعي كذلك بالهامش المتسع الذي تحتله الذاتية في فهم وتفسير النصوص والأحداث، وإن ادعى الإنسان منا الموضوعية، واجتهد في الالتزام بها، لأن واقع الحياة يؤكد بأن النفس أمارة بالسوء، وأنها كثيرة الانجذاب للشهوات: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف١٢/ ٥٣].

أهمية الوعي بقاعدة عدم مصادرة حرية المخالفين

ثم الوعي، بناء على ذلك، بقاعدة عدم الإنكار على المخالفين، فيما هو ذو طابع اجتهادي فكري أو تطبيقي، وهو المجال الأعظم في حياة البشر، لأن سنة الله اقتضت أن يختلف البشر، وتتنوع خبراتهم، وتتعدد رآهم. ثم الوعي بالحاجة إلى الاستدراك الذاتي المستمر، احتراماً لقدسية الحقيقة، وتحرياً للصواب، وتطهُّراً من أوزار الأخطاء. وفي الأثر: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، حيث وجدها أخذ بها»(١).

(١) ابن القيم، مفتاح دار السعادة ١/ ٢٨٣

ابنتي العزيزة: أود أن أختم هذه الفقرة من هذه الوصية لكما ولكل مقبلَين على الزواج مثلكما، بهذا الكلام الثمين لابن القيم رحمة الله عليه، في منهج فهم الإسلام والتعاطي مع أحكامه ومقاصده في الخلق، بعد أن نبّه إلى أن الصحابة وعلى الرغم من أخذهم بالرأي المنضبط ورجوعهم إليه، ما كان أحد منهم يقطع أنّ ما وصل إليه هو حكم الله يقيناً، إنما كان كل واحد منهم يقول: «هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني، والله ورسوله بريئان منه».

وقد نهى النبي ﷺ في الحديث الصحيح أميره بريدة أن يُنزل عدوه إذا حاصرهم على حكم الله، وقال: «فإنك لاتدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟، ولكن أنزِلهم على حكمك وحكم أصحابك»[1]. فتأمل كيف فرق بين حكم الله وحكم الأمير المجتهد، ونهى أن يسمى حكم المجتهدين: حكم الله.

ومن هذا لما كتب الكاتب بين يدي أمير المؤمنين عمر بن

(١) الألباني في صحيح أبي داود رقم٢٦١٢.

الخطاب ﷺ حكماً حكم به، فقال: هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر، فقال: لا تقل هكذا ولكن قل: «هذا ما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب».

قال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: «لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحداً اقتُدي به، يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكرهُ كذا، ونرى هذا حسناً، فينبغي هذا، ولا نرى هذا.. ولا يقولون حلال ولا حرام، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس١٠/ ٥٩] الحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله»(١).

فهذا الفهم المنطلق من الوعي العميق بنسبية إدراك الحقيقة والصواب، والاعتراف بتنوع الآراء وتعددها، والبعد

(١) إعلام الموقعين ١/ ٥٤.

عن الإنكار على المخالفين.. هو الذي حقق للصحابة وسطية الفهم، ويسر الحركة ومرونتها وفعاليتها. وهو ما يحتاجه المسلم في كل زمان ومكان لتلبية حاجات حياته، ومواجهة التحديات التي تحيط بها.

فالمسلم عليه أن يحتاط كثيراً من المنطق الذي فيه جزم ويقينية صارمة، فيما يتعلق بفهمه لأحكام الشرع ومقاصده من جهة، وفيما يتعلق بتنزيلها على الوقائع الاجتماعية من جهة أخرى. كما عليه أن يترك باستمرار هامشاً أو مسافة بينه وبين ذلك، يُدْخِلُ فيها اعتبارات الذاتية، وجزئية النظرة، وقصور المعطيات لديه، التي ربما أثَّرت على إصابة الحكم بشكل كبير. وهذا ما نراه في منهج العلماء الراسخين الذين يحتاطون في توقيعهم عن الله تعالى، وتراهم غالباً ما يذيلون آراءهم بقولهم: والله ورسوله أعلم، وأحياناً كثيرة بقولهم: الله أعلم بالمراد.

۞ ۞ ۞

دروس تطبيقية في خطورة قصور الوعي بالمنهج

وسأذكر لك هنا بعض النماذج التطبيقية الحية، التي تبين لنا أهمية الوعي بالمنهج من ناحية، وخطورة قصور الوعي به من ناحية أخرى. لتأكيد وتعميق الوعي بالحاجة إلى المنهج.

الدرس التطبيقي الأول: في الوعي بأهمية توقيت المواقف

ففي البخاري أن رجلين استبّا عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير، فقال النّبيّ ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد». فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي ﷺ وقال: تعوذ بالله من الشيطان، فقال أترى بي بأساً؟، أمجنون أنا؟، اذهب!»[1].

فهاهنا يبرز الدور الكبير للمنهج، باعتباره عملية تركيبية

(١) الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم٣٣٧.

تتكامل فيها معطيات كثيرة، يخص بعضها فهم النص واستيعاب مقاصده، ويخص البعض الآخر فهم واقع تنزيل النص، ويخص جانب آخر آليات إنجاز المطابقة أو المقاربة، ويمتد البعض الآخر ليستوعب مآلات عملية المطابقة أو المقاربة الإنجازية بين النص والواقع. فالأمر لا يقف فقط عند حدود الفهم لمقصد النص، أو إدراك نوعية الحكم، بل يتعدى تلك المرحلة إلى مرحلة فهم واستيعاب طبيعة الواقع الذي يستهدفه الحكم، وهو تعديل سلوك المتخاصمين وإنهاء حالة المنافرة الحادة بينهما، وما يحتاجه ذلك من وعي بمعطيات أخرى في المنهج، ذات صلة وثيقة بالجو النفسي والاجتماعي وربما التاريخي المحيط بالموقف، وهو ما كان عليه الصلاة والسلام على دراية به، فلم يبادر هو بنفسه إلى التدخل المباشر، بل ترك الأمر لغيره، واكتفى باستثمار الموقف تربوياً، بينما بادر أحد ممن يبدو أنه ليس على دراية كافية بكل أبعاد المنهج، فكانت النتيجة أن زاد الموقف توتراً وبعداً عن الحل، كما اتضح ذلك من موقف أحد المتخاصمين منه.

وما أكثر ما تحدث توترات في محيط الأسرة، ولا يفلح طرفي العلاقة الزوجية أو أحدهما في استيعابها، بسبب قصور وعيهما ببعض معطيات المنهج، كضرورة مراعاة حالة الغضب، وكيف أن محاولة تجاهلها لا تساعد على استيعاب الموقف، بل تزيده توتراً واشتعالاً، كما في هذا المثال. فلا يكفي أن يحس أو يعتقد أحد طرفي العلاقة الزوجية أنه على حق، لكي يباشر عملية التغيير في أي وقت، بل إن الموقف يحتاج باستمرار إلى القدرة على توقيت عملية إنجاز المهام، وإنضاج شروطه الأساسية قدر الإمكان.

الدرس التطبيقي الثاني: في الوعي بمآلات الأفعال

وفي البخاري كذلك أن معاذ بن جبل ﷺ كان رديف النبي ﷺ على الرحل، فقال النبي له: «يا معاذ بن جبل،قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: يا معاذ، قال: لبيك يارسول الله وسعديك. (ثلاثاً)، قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلّا حرمه الله على النار، قال يا رسول الله: أفلا أُخبر به الناس فيستبشروا؟

قال إذاً يتّكلوا». وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً (١).

فها هنا كذلك يبرز دور المنهج في الاستيعاب المقاصدي المنضبط للموقف، وهو ما لم يلتفت إليه معاذ ﷺ أول الأمر، وتحمس لتبليغ البشرى للناس، ولكنه أحجم عن ذلك لما أدرك البعد الآخر في المنهج، وهو مآل الموقف على عامة الناس كما أوضحه له رسول الله ﷺ حينما نبهه إلى أن ذلك قد يؤدي إلى إحداث بعض الاسترخاء في الفعالية الاجتماعية لبعض الناس، اتكالاً على رحمة الله وعفوه.

فعملية الاستثمار لأحكام الشرع وتوجيهاته، لا تتحرك في فراغ أو بمعزل عن بقية المعطيات الأخرى في المنهج، بل تتكيف بها وتستمد منها فعاليتها بعد ذلك. وأي موقف أو حكم أو توجيه شرعي استُثمِر بمعزل عن بقية أبعاده الأخرى فقَد فعاليته التربوية والاجتماعية، بل ربما أحدث مفعولاً عكسياً.

(١) البخاري رقم١٢٨.

الدرس التطبيقي الثالث: في الوعي بفقه الحركة الاستثنائية:

ففي البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»[1]. أي: ينتهك ستره ويفضحه ويُنزل من قدره، من حيث أراد هو أن يُعلي من قدره وأن يصنع لنفسه مكانة وموقعاً وشهرة هو ليس أهلاً لها!

هذا هو الأصل في الرياء والتظاهر، ولكن الوعي بالمنهج قد يمنح دعاة الإصلاح والقدوة والتربية، إمكانيةَ إضافية منضبطة لاستثمار بعض الاستثناءات من أجل التربية والتوجيه والقدوة في المجتمع، حيث أوضح بعض أهل الذكر أنه وعلى الرغم من استحباب إخفاء الأعمال الصالحة مثلاً، تجنباً للرياء، فإنه قد يستحب كذلك أحياناً لمن هو موضع قدوة، تحفيزاً للناس على الاقتداء به. وفي ذلك قال العز بن عبد السلام: «ومن أَمِن الرياء لقوة في دينه، فأخبر بما فعله من الطاعات ليقتدي الناس به، كان له أجر طاعته التي سمَّع بها، وأجر تسببه إلى الإقتداء في تلك

(١) البخاري رقم ٦٤٩٩.

الطاعات التي سمع بها، على اختلاف رتبها»[1].

وذكر الإمام الطبري أن ابن عمر وابن مسعود وجماعة من السلف كانوا يتهجدون في مساجدهم ويتظاهرون بمحاسن أعمالهم ليُقتدى بهم. فمَن كان إماماً يُستنُّ بعمله، عالماً بما لله عليه، قاهراً لشيطانه، استوى ما ظهر من عمله وما خفي، لصحة قصده، ومَن كان بخلاف ذلك فالإخفاء في حقه أفضل[2].

فالمنهج عندما يكون مستقيماً، يمنح صاحبه قدرة عالية على مرونة الحركة، وفعالية الاستثمار لما يتاح له من إمكانات وفرص في تحقيق التوجيه والتغيير والإصلاح الفكري والتربوي والسلوكي والاجتماعي المطلوب، وعندما لا يتوافر الوعي المنهجي المطلوب، تتعرض الإمكانات والفرص للهدر والتبديد، ويدخل جهد المسلم مراحل الانكفاء أو التنافر الذاتي والاجتماعي.

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/ ١٢٥.

(٢) ابن حجر، فتح الباري ١٤/ ١٢١.

الدرس التطبيقي الرابع: في الوعي بمتطلبات المقامات الاجتماعية

وأذكر لك هنا ما ورد عن الإمام عليّ ﷺ، عندما أبلغه الربيع بن زياد أن أخاه قد لبس العباءة يبتغي النسك والتبتُّل والزهد في الدنيا، فأسرع إليه فإذا به مؤتزراً بعباءة مرتدياً أخرى، شعث الرأس واللحية، فعبس في وجهه وقال: ويحك! أما استحييت من أهلك؟ أما رحمت ولدك؟ أترى الله أباح لك الطيبات وهو يكره أن تنال منها شيئاً؟ بل أنت أهون على الله من ذلك، أما سمعت الله سبحانه يقول في كتابه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾؟ [الرحمن٥٥/ ١٠-٢٢]

أفترى الله أباح هذا لعباده إلا ليبتذلوه ويحمدوا الله عليه، فيثيبهم عليه؟ وإن ابتذالك نعم الله بالفعل خير منه بالقول. قال عاصم سائلاً الإمام علياً: فما بالك في خشونة مأكلك وملبسك؟ قال: ويحك! إن الله فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس[1].

(١) الشاطبي، الاعتصام ٢٥٢.

إنه الوعي بسنن المنهج حينما يستوعبها الإنسان، فتعطيه البصيرة النافذة، وتمنحه القدرة على الموازنات الدقيقة، فتأتي مواقفه وتصرفاته وتوجيهاته أصيلة فعالة مؤثرة، في مستوى عظمة الشريعة وقوتها وقدرتها على الدفع من ناحية، وفي مستوى الاستجابة لحاجات وتحديات الواقع من ناحية أخرى.

الدرس التطبيق الخامس: في حفظ هيبة السلطان

وهو ما نراه في مثال آخر معاكس للمثال السابق، حدث مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حينما زار الشام فوجد معاوية ﷺ قد اتخذ أنواعاً من الأبهة، فأنكر عليه ذلك ابتداء، لكنه بعد أن سمع وجهة نظر معاوية الذي أبان له بأنه في بلاد اعتاد أهلها على نوع من تلك الأبهة، فإذا هو تقلل من بعض ذلك وزهد فيه، ونزع إلى التواضع، أوشك الناس أن يزدروه ويخف أمره في نفوسهم، وتقل طاعتهم له! فسكت عمر ﷺ عندما استوعب الموقف، وأدرك بأن تصرفات واليه على الشام تندرج في سياق المقاصد العامة للمنهج وثوابته الاجتماعية والسياسية.

ومن جميل ما علق به الشاطبي على هذا الموقف قوله:

«وليس ذلك من قبيل البدعة بسبيل. أما أولاً: فإن التجمُّل بالنسبة إلى ذوي الهيئات والمناصب الرفيعة مطلوب، وقد كان للنبي ﷺ حلة يتجمل بها للوفود، ومن العلة في ذلك ما قاله القرافي: من أن ذلك أهيب وأوقع في النفوس، من تعظيم العظماء، ومثله التحمل للقاء العظماء.. وأما ثانياً: فإن سلمنا أن لا دليل عليه بخصوصه، فهو من قبيل المصالح المرسلة»[1].

فأين هذا الوعي العميق بالمنهج وبين ما تعيشه بعض أجيال الصحوة من غربة منهكة عن مقاصد الشريعة، وعن أصول المنهج، وعن حقائق الواقع، وعن متطلبات الدعوة والبناء والمواجهة، والاستغراق في جزئيات لا متناهية، لايمكن تلافي مخاطرها الفكرية والتربوية والاجتماعية إلّا بوضعها في أطرها الكلية الصحيحة!؟

الدرس التطبيقي السادس: في الوعي بمعادلات الواقع

وفي مسلم: أن معاذاً ﷺ كان يصلي مع النبي ﷺ ثم يأتي

(١) الاعتصام ١٤١.

فيؤم قومه. فصلى ليلة مع النبي ﷺ العشاء. ثم أتى قومه فأمَّهم. فافتتح بسورة البقرة. فانحرف رجل فسلّم. ثم صلى وحده وانصرف. فقالوا له: أنافقت يا فلان؟! قال: لا والله! ولآتين رسول الله ﷺ فلأخبرنّه. فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنّا أصحاب نواضح. نعمل بالنهار. وإن معاذاً صلى معك العشاء. ثم أتى فافتتح بسورة البقرة. فأقبل رسول الله ﷺ على معاذ. فقال: «يا معاذ! أفتّان أنت؟ اقرأ بكذا. واقرأ بكذا». قال سفيان: فقلت لعمرو: إن أبا الزبير حدثنا عن جابر أنه قال: «اقرأ: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ و﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ». فقال عمرو: نحو هذا[1].

وفي رواية أخرى عند البخاري، أن معاذاً كان يصلي مع النبي ﷺ ثم يأتي قومه فيصلي بهم الصلاة، فقرأ بهم البقرة، قال فتجوز رجل فصلى صلاة خفيفة، فبلغ ذلك معاذاً فقال: إنه منافق، فبلغ ذلك الرجل، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّا

(١) مسلم رقم ٤٦٥.

قوم نعمل بأيدينا ونسقي بنواضحنا، وإن معاذاً صلى بنا البارحة فقرأ البقرة فتجوزتُ فزعم أني منافق، فقال النبي ﷺ يا معاذ: «أفتّان أنت (كرّرها ثلاثاً)! اقرأ ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ و﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ونحوها»[1].

النموذج التطبيقي السابع: البعد عن الإقتداء الحرفي

أذكر أننا صلينا الظهر ذات يوم بمسجد جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، فانفلت بين الصفوف شاب حدث، ليؤم جموع الأساتذة والطلبة.. فأطال بنا الوقوف حتى خلت أننا في قيام النهار! ثم ركع فأطال بنا الركوع حتى ظننت أنه يصلي بنا صلاة التسبيح مضاعفة! ثم سجد فأطال السجود حتى خشيت أنه قد أغمي عليه! وفعل مثل ذلك في بقية صلاته بنا، فأخّرنا عن مواعيد المحاضرات ما يقرب من نصف ساعة! وقد هممتُ أن أكلمه ونحن في الصلاة لأقول له: نحن في صلاة الظهر ولسنا في قيام الليل يا بني! فاقصد في

(١) البخاري رقم ٦١٠٦.

صلاتك، فإن وراءنا عبادات علمية وتربوية وإدارية واجتماعية أخرى تنتظر دورها، وقد جعل الله لكل عبادة وقتها ومترتباتها! وكل هذه العبادات التي ذكرتها من العبادات المتعدية، ذات التعلق بحقوق العباد والمجتمع!

فلما سلّم وانصرف الناس قلت له: لقد صليت بنا قيام الظهر يا بني! ففهم قصدي، فقال لي: إننا نريد أن نتشبه بالسلف ونقيم قليلاً من السنة، فذكرته بقوله ﷺ: «إذا صلّى أحدكم للناس فليخفف فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء»[1]. وأوردت له حديث البخاري كذلك الذي جاء فيه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال له: يارسول الله إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله ﷺ كما لم يغضب في موضع كان أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال: «يا أيها الناس إن منكم منفِّرين، فمن أمَّ الناس فليتجوَّز، فإنّ خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة»[2].

---

(١) الألباني في صحيح أبي داوود رقم٧٩٤.

(٢) الألباني في صحيح ابن ماجه رقم ٨١٠.

إن كل هذا العنت والتعنّت البريء في غالب الأحيان، ناجم عن قصور الوعي بمعطيات المنهج؛ في مقاصده وثوابته وضوابطه وآليات استثماره، ولو تمت عملية التحكم في معطيات المنهج، لاتسمت مواقفنا ومبادراتنا وتصرفاتنا وسائر أعمالنا الذاتية والاجتماعية، باليسر والليونة والرفق والمرونة، ولحققنا أعلى مستويات الأصالة والفعالية والاطراد في حركتنا الفكرية والسلوكية والاجتماعية، لأنه :«ما كان الرفق في شيء قط إلّا زانه، ولا كان الخرق في شيء قط إلّا شانه وإن الله رفيق يحب الرفق».كما جاء في الحديث الصحيح[1].

النموذج التطبيقي الثامن: في الترفُّق التربوي

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ أنه قال: «بينا أنا أصلي مع رسول عليه ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم! فقلت: واثكل أُماه، ما شأنكم تنظرون إلي؟! فجعلوا يضربون بأيديهم

(١) الألباني في صحيح الترغيب رقم٢٦٧٢.

على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصمِّتونني سكتُّ، فلما صلّى رسول الله ﷺ دعاني- فبأبي هو وأمي- ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن»(١).

فتأمّلي يا بنيتي هذا الأفق التربوي السمح الكريم المترفق بالناس، ومدى تأثيره فيهم، كما يتضح ذلك من التأثُّر البالغ لهذا الصحابي وهو يصف تعامل النبي ﷺ معه. وهو ما يجب أن نتأسى فيه، وليس أن نتأسى به تأسياً آلياً ذاهلاً عن مقاصد التصرفات والأحكام، وعن أحوال الناس وظروفهم، وما يصلح لكل واحد منهم.

النموذج التطبيقي التاسع: في الوقاية التربوية من الفتن

ففي صحيح البخاري أن الفضل كان رديف النبي ﷺ، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه،

---

(١) مسلم رقم ٥٣٧.

فجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر. فقالت: إن فريضة الله أدركت أبي شيخاً كبيراً، لا يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟. قال: نعم. وذلك في حجة الوداع[1].

قال ابن حجر: « قال ابن بطال: في الحديث:الأمر بغضّ البصر خشية الفتنة. ومقتضاه أنه إذا أمنت الفتنة لم يمتنع. قال: ويؤيده أنه ﷺ لم يحوِّل وجه الفضل حتى أدمن النظر إليها لإعجابه بها، فخشي الفتنة عليه.. وفيه مغالبة طباع البشر لابن آدم وضعفه عما ركب فيه من الميل إلى النساء والإعجاب بهن»[2].

ولم يكتف ﷺ بهذا الرفق بهذا الشاب المراهق، ومحاولة صرف الفتنة عنه وعن هذه الشابة بكل لطافة، بل مضى إلى ماهو أبعد من ذلك في دفع الفتنة، فاستجاب لدواعي الفطرة وساعده هو وشاب آخر على الزواج، كما ورد ذلك في حديث مطول عند مسلم، جاء فيه: «.. فقال -أي النبي - لمحمية: أنكح هذا الغلام ابنتك للفضل بن العباس رضي الله عنهما

(١) البخاري رقم ١٨٥٥.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٢٤٥.

فأنكحه. وقال لنوفل بن الحارث: أنكح هذا الغلام ابنتك فأنكحني، وقال لمحمية: أصدق عنهما من الخمس كذا وكذا»[1].

إن المنهج عندما يكون منضبطاً ومستقيماً، تأتي المواقف والتصرفات متناسقة ومنسجمة، وملبية للمصالح في أبعادها المختلفة؛ الشرعية منها والاجتماعية، الفردية منها والجماعية. أما عندما يكون المنهج مضطرباً فإن كل شيء يضطرب معه ولا يستقيم. فاحرصي يا بنيتي على إحكام أمر المنهج فإنه سر التوفيق والنجاح، حتى وإن كانت المعلومات الفرعية قليلة، فإنه يحولها إلى فعالية كبيرة، في حين لا تستطيع المعلومات الكثيرة أن تفعل شيئاً مع اضطراب المنهج، بل إنها كثيراً ما تتحول إلى آلة هدم وإضعاف ذاتي واجتماعي.

(١) مسلم رقم ١٠٧٢.

منارات إضافية على طريق الحياة الزوجية

وهذه كذلك بعض القواعد العامة ذات الأهمية الكبيرة في نجاح الحياة الزوجية خاصة، وفي العلاقات الاجتماعية العامة بصفة عامة، رأيت أن أختم بها هذه الوصية الموجزة لكما وأنتما تشقان طريق الانفتاح على عمق الحياة والإسهام في بناء نهضة المجتمع والأمة، وإغنائها الميراث الحضاري الإنساني.

منارة الهيبة من الله والخشية من انتهاك حرماته

هي رأس كل خير، ومقدمة كل نجاح في الحياة، ومن يتقي الله يجعل له مخرجاً، ومن يتوكل عليه فهو حسبه. فالعلاقة الزوجية بقدر ما يكون فيها من الحرص على تقوى الله واجتناب نواهيه، وتعظيم محارمه، بقدر ما تتحقق فيها المودة والرحمة والسكينة. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾ [الطلاق٦٥/ ٣].

فالحياة الزوجية كما الحياة الفردية عامة، يجب أن تتأسس على تقوى الله؛ محبة وخوفاً ورجاء، وهيبة وتعظيماً، ووقوفاً عند الحدود، وعلى استعظام أمر انتهاكها، والمبادرة إلى التوبة والتدارك والتصحيح من طرفي العلاقة الزوجية معاً. لأن الغفلة عن الذنوب هي أكبر خطر يهدد حياة الإنسان عامة، والحياة الأسرية خاصة، كما جاء ذلك في الحديث في صحيح الترغيب: «**إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نُكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها، وإن زاد زادت حتى يغلف قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه** ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝﴾»[1].

إن الحياة الزوجية إذا قامت على أساس التقوى والهيبة من انتهاك حدود الله، فقد توافر لها الأساس المكين للنجاح، أما إذا لم تعر اهتماماً، من أول أمرها، لهذا الركن الركين فيها، فإنها تكون قد قامت على أساس هش سرعان ما ينهار ويؤثر في عمقها العبادي والروحي والأخلاقي والاجتماعي،

(١) الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣١٤١.

ويسلب منها روح السكينة والبركة. قال تعالى: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج ٢٢/ ٣٠].

والحرمات هي: «كل ما يجب احترامه وحفظه؛ من الحقوق، والأشخاص، والأزمنة، والأماكن. وتعظيمها وتوفيتها حقها، وحفظها من الإضاعة، والخروج من حرج المخالفة، وجسارة الإقدام عليها، بتعظيم الأمر والنهي، خوفاً من العقوبة وطلباً للمثوبة»[1] كما يقول ابن القيم.

منارة صبغ الخدمة العائلية بطابع العبادة

من خلال الاستحضار الدائم لنية العبادة لله تعالى، في كل عمل يقوم به طرفي العلاقة الزوجية تجاه بعضهما البعض، أو تجاه محيطهما الأسري أو الاجتماعي عامة. فالسكينة النفسية والعائلية والاجتماعية تتحقق بقدر ما يكون المعنى العبادي الروحي الأخلاقي، حاضراً في كل خدمة يؤديها كل من الزوج أو الزوجة.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ١/ ٥٠٣.

إن الحياة الزوجية يا بنيّتي، ينبغي ألا تقوم على المنطق الحسابي الصارم للحقوق والواجبات، كما هو حال كثير من العلاقات الأسرية في حضارة المادة المعاصرة مع الأسف الشديد، بل ينبغي أن تقوم في الأساس على منطق الإيثار، واستباق الحسنات، وطلب رضا الله تعالى وثوابه، من طرفيْ العلاقة الزوجية معاً. فذلك المنطق الروحي الرفيع، هو وحده القادر على بث السكينة والبركة في العلاقات الزوجية، وتأجيج المودة والرحمة فيها.

إن غياب أو ضمور معنى العبادة في الخدمة العائلية، يصيبها بالجفاف والبرودة، وكثرة المناوشات المنغصة لها، بينما حضور المعاني العبادية والروحية فيها يعمل على تجديدها وتصحيحها باستمرار. لأن العبادة المرتبطة بابتغاء الأجر والثواب والرضا من الله، يقوي الأمل، ويوسع أفق الإنسان، ويهون الصعوبات، ويخفف من ضغوطاتها على طرفي العلاقة الزوجية.

ومعنى هذا أنه على الإنسان لكي يضع الخدمة العائلية

في سياقها العبادي الروحي، المفعم بمشاعر المودة والرحمة، والمحفوف بأجواء السكينة والبركة، أن يعتمد **منطق الاحتسابية والمكارمة الصادقة**، وأن يبتعد عن منطق المحاسبة والمشاححة الحقوقية الأنانية، في كل ما يتصل بالعلاقات الزوجية بصفة أخص.

وتأملي هذا المشهد الجميل من الحياة العائلية للصحابة ﷺ، وكيف كان رسول الله ﷺ يحرص دائماً على تعميق المعاني العبادية الروحية في العلاقات الزوجية بصفة خاصة والعلاقات الاجتماعية العامة بصفة عامة. فقد دعا النساء يوماً إلى التصدق والبذل من أجل سد بعض حاجات المجتمع، فوعت النساء عنه ذلك، وجاءه بعضهن يسألنه عن أولويات البذل.

روى مسلم عن زينب زوجة عبد الله بن مسعود ﷺ، أنها لما سمعت قول رسول الله: «**تصدقن يا معشر النساء! ولو من حُليِّكن**» قالت: فرجعت إلى عبد الله فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد. وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة. فأْتِه فاسأله. فإن كان ذلك يجزي عني وإلا صرفتها إلى غيركم. قالت: فقال

لي عبد الله: بل ائتيه أنت. قالت: فانطلقت. فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ، حاجتي حاجتها. قالت: وكان رسول الله ﷺ قد أُلقيت عليه المهابة. قالت: فخرج علينا بلال فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ. فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتجزي الصدقة عنهما، على أزواجهما، وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره مَن نحن. قالت: فدخل بلال على رسول الله ﷺ. فسأله فقال له رسول الله ﷺ: «من هما؟ فقال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال رسول الله ﷺ: **أي الزيانب؟** قال: امرأة عبد الله. فقال له رسول الله ﷺ: «**لهما أجران أجر القرابة وأجر الصدقة**»[1].

إنهما لم يقولا مثلما يقول الكثير من النساء: إن الرجل هو المسؤول عن رفع المستوى الاجتماعي للأسرة، فهو القوام عليها، وعليه أن يتحمل مسؤوليته! بل بادرتا إلى المشاركة في رفاهية الأسرة ببذل مدخراتهما العزيزة لأزواجهما، وهو أمر كما نرى، جاء في سياق تربوي استحث فيهما وفي غيرهما،

(١) مسلم رقم ١٠٠٠.

المعاني العبادية الروحية العميقة.

فاستحضار هذه المعاني العبادية والروحية في علاقاتنا الأسرية، والتنافس بين الزوجين وبقية أفراد العائلة من أجل تحقق كل واحد منهم بها، يوفّر لها شروطاً أساسية كثيرة للتلاحم العاطفي والاجتماعي، ووقايتها من الجفوة والبرودة العاطفية والاجتماعية المنهكة.

منارة احترام ميثاق الزواج الغليظ

واعتباره رابطة روحية واجتماعية مقدسة، يجب حمايتها والحذر الشديد من أي مساس بها وبقدسيتها. فهو أمانة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في وصيته بالنساء: «**اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»[1]. وكما جاء النص على ذلك في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء٤/ ٢١].

---

(١) مسلم رقم ١٢١٨.

فالزواج بما تأسس عليه من كلمة الله وعهده وميثاقه من ناحية، وبما ترتب عليه من علاقة عاطفية وروحية حميمية طاهرة بين الرجل والمرأة من ناحية أخرى، وبما كشفه وأودعه من أسرار عند كل طرف لدى الطرف الآخر من ناحية ثالثة، وبما بناه من شبكة علاقات اجتماعية واسعة بين عائلات عديدة في المجتمع من ناحية رابعة، وبما تمخض عنه من ذرية بريئة في حاجة إلى حب وحنان ورعاية أبوية كاملة من ناحية خامسة.

إن الزواج بكل هذه الأبعاد والمعاني والآفاق هو فعلاً **ميثاق غليظ ورابطة مقدسة**، يجب الحرص عليها أشد الحرص، والحذر أشد الحذر من توهين أو فك أي عروة من عراها التي قد تمس ببقية عرى هذه العلاقة الإنسانية المتميزة.

منارة الثقة المتبادلة

فالثقة المتبادلة بين الزوجين هي الحصن الواقي للحياة الزوجية، تقوى وترسخ وتعظم بركتها بقوة هذه الثقة ورسوخها، وتضعف وتقل بركتها بضعفها واهتزازها. وهي ثمرة المحبة والاحترام والصدق والوضوح والصراحة المتبادلة

بين الزوج والزوجة، والمبادرة السريعة إلى إزالة أية التباسات قد تمس هذه الثقة أو تخدشها، وعدم تركها تزرع بذور الحيرة والريبة والشك، التي تقوض كيان الثقة، وتفسح المجال أمام تقويض بقية عرى العلاقة الزوجية الأخرى.

إن الثقة يا بُنيتي، كحصن واقي للحياة الزوجية ومواثيقها الغليظة، تحتاج إلى تغذية ووقاية مستمرة، تمكنها من الصمود في وجه المؤثرات والضغوطات السلبية الكثيرة التي تحيط بالحياة الأسرية، فلا تغفلي ولا تترددي عن عمل كل ما يغذي هذه الثقة ويحافظ عليها، والابتعاد عن كل ما يضر بها.

والمراجعات والتقويمات غير الناقدة، التي تتم في جو من الاستنصاح المتبادل من حين لآخر، تعد وسيلة مهمة لاكتشاف النواقص وتداركها، وتلافي تراكم علامات الاستفهام والتذمر في الحياة الزوجية.

منارة المعرفة بطبائع وأحوال الآخرين

تعد ضرورة حيوية لحسن التعامل معهم، والانتفاع بما عندهم، واتقاء شرورهم، ومساعدتهم على تغيير أنفسهم.

وتتأكد هذه المعرفة في المحيط الأسري بصفة خاصة، حيث على كل طرف فيها أن يبذل جهداً جاداً لمعرفة طباع وعادات وأحوال الآخر بشكل عميق، من أجل علاقة زوجية أكثر انسجاماً وتكاملاً وخصوبة. وما أكثر ما تفشل العلاقة الزوجية ولا تبلغ مداها من المودة والرحمة والسكينة والبركة، بسبب جهل كل طرف بطباع وعادات وأحوال الآخر.

فاجتهدي يا بنيتي في التعرف على شريك حياتك، وأعينيه على التعرف على حياتك بل وحياته، في كل ما من شأنه أن يساعدكما على التحابب والتواد والتفاهم، ويمنحكما القدرة المتبادلة على تجاوز أية مشكلات داخلية أو خارجية تعترض حياتكما.

إنه من الخطأ الكبير في العلاقة الزوجية، أن يلجأ الرجل أو المرأة إلى التخمين والتأويل والإسقاطات الذاتية، أو الاعتماد على تعريف الآخرين وتقويمهم لشريك حياته! فتلك كلها أخطاء يجب الحذر منها، والاعتماد مباشرة على المعرفة الذاتية المنصفة المتبادلة. لأن التقويمات الخارجية كثيراً

ما تشوبها أغراض وجهالات تموه الحقيقة وتشوهها لأغراض في نفس أصحابها، يرجع بعضها إلى الغيرة والحسد، وبعضها الآخر إلى تباين في مرجعيات التقويم الذي يؤدي على سوء التقدير للموقف.

منارة المعرفة بالذات

وتسبق المعرفة بالطرف الآخر معرفة وثيقة بالذات، إذ ما أكثر الناس الذين لا يعرفون أنفسهم جيداً! ولا يبذلون جهداً من أجل ذلك. ومن لا يعرف نفسه كيف يمكنه أن يعرف الآخرين ويقيم بهم علاقات مودة ورحمة وسكينة!؟ إن المعرفة بالذات في نواقصها وفي مواطن القوة فيها، مقدمة ضرورية لكل نجاح في العلاقة بالنفس وبشريك الحياة، وبالآخرين بصفة عامة.

وقد يفيد في التعرف على الذات الاستعانة بملاحظات ونصائح ومواقف شريك الحياة، و نصائح وتقويمات الأهل والأصدقاء الخلص، الذين ينتبهون أكثر منك إلى بعض مواطن ونواحي القوة فيك، أو بعض نواحي النقص،

فينبهونك إليها لتعملي على ترقية نواحي القوة وتتخلصي من نواحي الضعف.

كما تفيد القراءات الجادة في عملية المراجعة والتقويم الذاتي. لأن الإنسان وهو يقرأ تجارب الآخرين، وخلاصات الخبرات التي توصلت إليها البحوث الجادة، يتكون لديه إطار مرجعي نموذجي يعينه كثيراً على نقد ذاته وتغيير نفسه.

منارات الصدق والصراحة والمحبة والرعاية المتبادلة

هي وقود الثقة كما أسلفت، تقوى وترسخ وتعظم بركتها بقوتها ورسوخها في العلاقة بين الزوجين، ويسري تأثيرها إلى الأولاد، وتضعف وتذبل بضعفها وذبولها في العلاقة الزوجية وفي المحيط الأسري كله.

والتستر والتكتم، والإحجام عن إبداء مشاعر المودة، وضعف الرعاية المتبادلة، من مقوضات الثقة والمحبة والسكينة في العلاقات الزوجية، ينبغي الابتعاد عنها، والحذر منها. مع ضرورة الحرص على سبر غور هذه السلوكيات غير السوية في العلاقات الزوجية، إن وجدت، لأن معرفة الأسباب والبواعث

قد تساعد على اكتشاف نواقص في أحد طرفي هذه العلاقة، تدفع بالطرف الآخر إلى التستر والتحفظ والتكتم، وهو مايعمل في النهاية على تصحيح متبادل يعزز قيم الصراحة والصدق والمحبة والثقة والرعاية المتبادلة في الحياة الزوجية.

منارة البعد عن الأنانية وعدم الاهتمام واللامبالاة بالطرف الآخر

هي الرصاصات الخفية التي تغتال الثقة تدريجياً، وتقوض الأساس النفسي والعاطفي والاجتماعي الذي تقوم عليه الحياة الزوجية الكريمة. لأن ذلك يكون رد فعل طبيعي شعوري أو لا شعوري لدى الطرف الآخر، يدفع به إلى الشعور بالمهانة وانعدام الوزن عند الطرف الآخر، فتتحرك في نفسه غريزة المعاملة بالمثل التي قد تدفعه إلى المكر الخفي، وهو ما يدفع بالحياة الزوجية والأسرية عامة إلى هاوية الجفوة والتوتر المستمر، الذي يسلبها روحها وبركتها.

إن هذه الأخلاق الرديئة، بالإضافة إلى ما تلحقه بالحياة الزوجية من أضرار مهلكة، فإنها تلحق أضراراً أشد بالذرية

البريئة، التي تصاب بتسممات فكرية ونفسية وسلوكية خطيرة، من جراء ما تمتصه من هذه الأجواء الموبوءة، فتأتي ذرية مصابة، إما بالأنانية والاستكبار والغطرسة، وإما مصابة بالدونية والازدواجية في الشخصية.

منارات الإيثار وإبداء الاهتمام والعناية بالطرف الآخر

وتحسيسه بقيمته، هي الخمائر المؤججة للمحبة والاحترام والمجددة لها باستمرار. فاحرصي يا بنيتي على هذه القيم، وخذي نفسك بها، وساعدي شريك حياتك على أخذ نفسه بها، حتى يتعزز التلاحم الروحي والعاطفي والاجتماعي في محيط الأسرة، ويشكل العامل التربوي الرئيس بالنسبة للأطفال الذين يمتصون هذه القيم من موقع القدوة الحية، فينشؤون مؤثِرين مهتمين بالآخرين، مقدرين لهم، غير أنانيين.

منارة البعد عن المـمنونية

أي المن بما عندك من امتيازات على شريك حياتك، وإشعاره بالنقص أمامك دوماً، أو بالاضطرار إليك. وهو من أسوأ الأخلاق، وأخطر عوامل سلب الحياة الزوجية روحيتها

وسكينتها وبركتها. مما جعل الشريعة تعتبر ذلك من أقوى أسباب هلاك الإنسان في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ؛ ولا يزكيهم ؛ ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»[1].

فعقلية المنِّ والتفضُّل والتدلل بذلك على شريك الحياة، وتحسيسه به كل مرة، يقود إلى الاستكبار عليه، ونسيان فضله وحقوقه المماثلة، والمس بكرامته الآدمية، وتحسيسه بالمهانة! فإذا تم ذلك من الطرفين داخلت حياتهما الأسرية مراحل الخطر المتقدمة.

منارة خطر كفران النعمة وجحد الجميل

وهي من أسباب فقدان نعمة المودة والسكينة والبركة في العلاقات الزوجية والأسرية عامة، كما جاء التحذير من ذلك في هذا الحديث الخطير: «**إياكن وكفران المنعمين، إياكن وكفران المنعمين قالت إحداهن: نعوذ بالله يا نبي الله من كفران نعم الله، قال: بلى إن إحداكن تطول أيمتها ثم تغضب**

(١) الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٦٩.

الغضبة فتقول: والله مارأيت منه ساعة خيراً قط، وذلك كفران نعم الله، وذلك كفران المنعمين، إياكن وكفر المنعمين، لعل إحداكن تطول أيمتها من أبويها، ثم يرزقها الله زوجها ويرزقها منه ولداً، فتغضب الغضبة فتكفر، فتقول: مارأيت منك خيراً قط»[1].

فجحد فضل شريك الحياة ونكران فضله، فيه أكبر الإساءة إليه، والتثبيط له، لا ينبغي أن يقدم عليه أي منهما، بل عليهما الحذر الشديد منه، لأنه قد يكون طريقاً إلى النار والعياذ بالله تعالى، كما جاء في الحديث الآخر أو في الرواية الأخرى للحديث السابق، والتي نكتفي منها بما يلي: «.. **إني رأيت الجنة أو (أريت الجنة) - ولم يشك إسحاق- قال: رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر كاليوم منظراً أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء قالوا: لِـمَ يا رسول الله قال: بكفرهن. قال: أيكفرن بالله عزَّ وجلَّ قال: لا، ولكن يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى**

(١) الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم ٨٠٠.

إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيتُ منك خيراً قط»[1].

إنه لا يجوز للرجل أن يقلل من جهاد المرأة في بيتها أو أي عمل لها، كما لا يجوز للمرأة أن تقلل من جهاد زوجها خارج البيت أو داخله، بل على كل واحد منهما أن يعترف بجهد وجهاد الآخر، وأن يثمنه باستمرار، تشجيعاً له على المضي فيه بنية حسنة، وصبر واحتساب جميلين.

منارة البعد عن الندية والمعاندة والمبالغة في حب إثبات الذات

عوامل متقدمة في ضرب الاحترام والمحبة والثقة المتبادلة، وتقويض الأساس النفسي والفكري والاجتماعي للحياة الزوجية، وتوريث عواقب ذلك للأولاد، فينشؤون معبَّئين بالعناد والغرور وحب الجدل والبطر، فتعسر حياتهم، ويصعب عليهم التواصل الاجتماعي، وتفوت عليهم مصالح دنيوية وأخروية كثيرة.

(١) مسند أحمد تحقيق أحمد شاكر ٥/ ١٢٧.

وفي الحديث: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا هذه الآية:** ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾»[1].

فالجدل بكل ما يعنيه من ندية ومعاندة، وتشبث بالرأي ومناصرته ولو كان غير صواب، ضلال عن سبل الهدى في تمتين العلاقات الأسرية، وبث الرحمة والمودة والسكينة والبركة فيها، وفسوق عن سنن الله في ذلك، يترتب عليه وهن في الحياة الأسرية قد يصعب جبره بعد ذلك، ويستدعي عمليات جراحية نفسية واجتماعية مؤلمة وقاسية.

وفي الحديث أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»[2]. لما في الخصومة واللجاجة من استفزاز المشاعر، وإثارة النفوس، وإفساد ذات البين التي هي الحالقة كما جاء في الحديث: «**ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى يارسول الله.قال:**

(١) الألباني في صحيح ابن ماجه رقم ٤٥.

(٢) البخاري رقم ٢٤٥٧.

إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول: إنها تحلق الشعر و لكن تحلق الدين»[1].

فالحياة الزوجية إذا انزلقت إلى منطق الجدل والمعاندة والندية، فإنها تكون قد تورطت في متاهة لا مخرج لها منها، وستجد نفسها تسير بسرعة نحو تقويض أمن وسلام الأسرة وروحيتها وبركتها الداخلية، وحولتها إلى هيكل مظهري يخفي داخله ضنكية منهكة.

منارات الليونة والمرونة والرفق في مواجهة التوترات الأسرية

أمر حيوي في امتصاص التشنجات العائلية واحتواء مضاعفاتها بأقل التكاليف وأيسرها، لأنها لا تتيح الفرصة لسوء الفهم أو التفاهم ليتطور إلى ما هو أسوأ وأعصى على المعالجة. وفي الحكمة: «لا تكن يابساً فتُكسر، ولا تكن ليناً فتُعصر».

فالحياة الزوجية بصفة خاصة، والحياة الاجتماعية بصفة عامة، لا يستقيم أمرها مع منطق الجفاء والحدية الصارمة، بل

---

(١) الألباني في غاية المرام رقم ٤١٤.

تسير في عمومها وفق منطق الليونة والمرونة والرفق، والدفع بالتي هي أحسن، لما في ذلك من تليين للقلوب، وكسب للعواطف، وتخفيف من بواعث المقاومة والرفض، وامتصاص لمبررات الخوف والاحتياط والريبة، وهو مايؤصل القرآن الوعي به في مواطن كثيرة، نكتفي منها بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت ٤١/ ٣٤-٣٥].

منارة اتقاء سَوْرة فقدان التوازن النفسي والفكري والبدني

لما يترتب على الغضب من فقد الإنسان لوعيه، وعدم قدرته على التحكم في أعصابه. فإذا قابله غضب مضاد اشتعلت نار حرق المودة والسكينة، بما يصدر عن ذلك من مواقف شاردة ومؤذية. وخير دواء لمواجهة أخطار الغضب، هو عدم تهييج الطرف الغاضب، والحرص الشديد على تسكين سورة

غضبه بالسكوت عنه، ومساعدته لاجتياز مرحلة فقدان توازنه النفسي والفكري والبدني. وفي ذلك قال أسماءُ بن خارجة:

خـذي العفوَ منّي تستديمي مودَّتي
ولا تنطقي في سَوْرتي[1] حـينَ أغضب
فإنّي رأيتُ الحبّ في الصَّدرِ والأذى
إذا اجتمعـا لم يلبثِ الحـبُّ يذهب

فالزوجان عليهما أن يتعلما كيفيات ضبط النفس، وحفظ التوازن، عن طريق الاستعاذة القلبية العميقة من الشيطان، وعدم مجاراة بعضهما البعض في الغضب، بل على كل واحد منهما أن يجتهد في كظم غيظه، وأن يبادر بتهدئة الموقف، أو يعمل على تغيير وضعه أو مكانه، أو يخرج، أو يغسل وجهه، أو يتوضأ ويصلي، يبكي حتى يفرغ شحنة التوتر العصبي والعاطفي الحادة، ويسمح لجسمه باستعادة توازنه.. إلى غير ذلك من التدابير الروحية والنفسية والحركية التي تساعده على

(١) السَوْرة: الحِدَّة والانفعال.

تخفيف سَورة غضبه وغضب شريكه.

وفي الحديث أن رجلا سأل النبي ﷺ: «**يا رسول الله قل لي قولاً وأقلِل لعلّي أعيه. قال: لاتغضب.فأعاد عليه مراراً، كل ذلك يقول:لاتغضب**»[1]. فالغضب مدخل لشرور كثيرة، يجب على كل واحد من طرفي العلاقة الزوجية أن يقي نفسه منها، وأن يعين صاحبه على الوقاية المبكرة أو المرافقة من ذلك أيضاً.

منارة الانفتاح على ما هو إيجابي وجميل في حياة الآخرين

وعدم فسح المجال لما هو سلبي في حياتهم ليحتل مكاناً في علاقاتك بهم، وفي موقفك منهم، على حساب ما هو إيجابي وجميل في حياتهم وهو كثير دائماً. فالكمال في البشر نادر، والحكم على الأشياء والأشخاص والمواقف تكيِّفه النسبية باستمرار.

إن على كل واحد من طرفي العلاقة الزوجية ألا يكون سوداوياً، أو مثالياً أكثر من اللزوم، بل عليه أن يكون متوازناً ومنصفاً في نظرته وموقفه وتقديره للآخرين، وألا يحمِّلهم

(١) الألباني في صحيح الترغيب رقم ٢٧٤٨.

ما لا يطيقون، أو ما لا تطيقه ظروفهم وأوضاعهم.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يفرك (أي: لايبغض) مؤمن مؤمنة إن كرِه منها خلقاً رضي منها آخر. (أو قال: غيره)**»(١). وقد تأسس هذا المبدأ التربوي والاجتماعي العظيم في القرآن قبل ذلك، في مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء٤/ ١٩].

وهذه كما يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «حكمة عظيمة. إذ قد تكره النفوس ما في عاقبته خيراً، فبعضه يمكن التوصل إلى معرفة ما فيه من الخير عند غوص الرأي. وبعضه قد علم الله أن فيه خيراً، لكنه لم يظهر للناس.

قال سهل بن حنيف حين مرجعه من صفين: اتهموا الرأي فلقد رأيتنا يوم أبي جندل ولو نستطيع أن نرد على رسول الله

(١) مسلم رقم ١٤٦٩.

أمره لرددناه. والله ورسوله أعلم. وقد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة ٢/ ٢١٦].

والمقصود من هذا: الإرشاد إلى إعماق النظر وتغلغل الرأي في عواقب الأشياء، وعدم الاغترار بالبوارق الظاهرة. ولا بميل الشهوات إلى ما في الأفعال من ملائم، حتى يسبره بمسبار الرأي فيتحقق سلامة حسن الظاهر من سوء خفايا الباطن»[1].

فهذه القاعدة الذهبية ترشدنا إلى أهمية الانفتاح على ما في حياة الآخرين من جمال وكمال وخيرية وإيجابية، ونحن واجدوها إن تخلصنا من معضلة انشداد أنظارنا إلى بعض ما يبدو لنا بأنه نواحي سلبية في الآخرين، وحاولنا إبصار الموقف أو المشهد في شموليته وتكامليته، ووضعنا بعض هذه السلبيات والنواقص في موقعها الصحيح، ولم نركز عليها ولم نضخمها أكثر مما هي عليه.

(١) تفسير التحرير والتنوير ٤/ ٢٨٧.

ابنتي العزيزة: اسمحي لي أن أذكر لك مثالاً عن خطورة تركيز النظر على ما قد يبدو لنا نحن سلبيات أو نواقص، وأهمية النظرة الانفتاحية المتكاملة على مجمل حياة وواقع الآخرين. فلقد عشت شخصياً مواقف كثيرة جداً في هذا الإطار، أكتفي بذكر واحدة منها، ذات صلة مباشرة بالحياة الأسرية. فقد اضطربت بعض الوقت في بداية زواجي بأمك رحمة الله عليها، بسبب فارق السن بيننا من ناحية، وبسبب التفاوت في المستوى الثقافي من ناحية أخرى، وبسبب تأخُّر الحمل لديها بعض الوقت من ناحية ثالثة، وهو ما استغله الشيطان في نفسي لبرهة يسيرة من الزمن، عشتُ فيها توتراً بل وقلقا شديداً، ولكن صدقي وصبري وانفتاحي على مجمل الموقف، مكنني من تجاوز ذلك القلق الشيطاني، واكتشاف ما أبهرني وشدني إلى زوجتي العزيزة شداً غير عادي، وارتقى بعلاقاتنا ببعضنا البعض إلى مستويات مثالية من المودة والمحبة والرحمة والسكينة والبركة، كان بإمكانها أن تضيع مني جميعاً، بسبب نظرة جزئية عابرة لبعض ما بدا لي نواقص في مبتدأ حياتي الزوجية.

منارة الحذر من العجلة في بناء الأحكام والمواقف

والمثال السابق يفضي بنا إلى منارة أخرى في الحياة الزوجية خاصة والحياة الاجتماعية بصفة عامة، وهي الحذر من الاستعجال في بناء المواقف واتخاذ القرارت الحياتية، قبل استكمال التحري في خلفياتها ومعطياتها ومآلاتها، والاستعانة بأهل الثقة والرأي عند الحاجة والضرورة.

وقد كان الرسول ﷺ، على جلالة قدره، واتصاله المباشر بالوحي، يستعين بغيره من أهل بيته، وأهل ثقته من الصحابة. كما فعل في قصة الإفك مثلاً، حينما استشار أسامة بن زيد، وعلياً، والجارية بريرة رضي الله عنهم[1]، وتحرى الأمر بمكث وروية وصبر، ولم يستعجل، حتى استبان له الأمر عبر الوحي، الذي أكد له قناعة كانت في نفسه، عن براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مما روجه عنها المنافقون؛ كيداً لرسول الله ﷺ وتشويشاً على دعوته إن كثيراً من الناس ينطلقون من ملاحظات غير دقيقة، أو أخبار وإشاعات واهية، أو إيحاءات مغرضة، أو أحوال نفسية

(١) البخاري رقم ٤٧٥٠.

واجتماعية عارضة، أو تفسيرات ذاتية لبعض مواقف وتصرفات شريك الحياة الزوجية لا صلة لها إطلاقاً بالحقيقة الموضوعية.. ثم يبنون أحكامهم ومواقفهم عن شركاء حياتهم، ويدخلون العائلة وسلامها وسكينتها في دوامات من المنغصات التي لامعنى لها! ثم يتضح لهم بعد حين أنهم كانوا مخطئين، وأنهم أساؤوا تقدير الموقف، وأنهم تسببوا في تمزيق جزء من نسيج العلاقات الروحية والعاطفية والاجتماعية لأسرهم.

إن العجلة من أعمال الشيطان، ومن حيله وخُدَعه ومكره بالإنسان، يجب على الزوجين معاً أن ينتبها إليها أشد الانتباه، وأن يوطنا نفسيهما على التريث وطول النفس، وتحري الحقيقة من جميع جوانبها، قبل الإقدام على بناء أي حكم أو اتخاذ أي موقف قد يضر بنسيج شبكة العلاقات الروحية والعاطفية والاجتماعية بينهما، ويتعدى ذلك إلى بقية أطراف ومكونات الأسرة. وفي الحديث: « **التأني من الله والعجلة من الشيطان**»[1].

---

(١) الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠١١.

ومن أبعاد الخطورة التي يجب الانتباه إليها هنا، ما يتسبب فيه التسرع والاستعجال من اهتزاز ثقة المجني عليه في شريك حياته، عندما يستقر في نفسه أنه إنسان متسرع وغير رزين في أحكامه ومواقفه، وأنه قليل الثقة فيه، ويتعامل معه على هذا الأساس بعد ذلك!

منارة الاعتذار والاستدراك

ولخطورة العجلة وتأثيراتها السلبية على العلاقات الزوجية والأسرية، تأتي منارة الاعتذار والاستدراك لمعالجة الموقف، وتلافي تداعياته. إذ ينبغي على المتسرع في مواقفه وأحكامه وتصرفاته من طرفي العلاقة الزوجية، أن يبادر إلى تقبيل ومعانقة صاحبه بحرارة، والاعتذار له عما بدر منه، ومحاولة شرح خلفيات موقفه ومنطلقاته المصلحية المتصورة. وعلى المخطئ في حقه أن يقبل ذلك وينوه به، ويعتبر ذلك الاعتذار والاستدراك من مواطن القوة والأصالة والتميز في شخصية صاحبه، وأن ينزع ما وقر في نفسه من انطباعات سلبية تجاهه.

إن زوجة أو زوجاً،يدرك خطأه، ثم لا يتردد في تقبيل

ومعانقة صاحبه بحرارة وعمق، والقول له: يا (....) سامحني أو سامحيني فقد أسأت إليك وظلمتك وأخطأت في حقك، سوف يزداد أو تزداد قيمته أو قيمتها عند شريك حياته.

والاعتذار وحده لا يكفي، بل لا بد من تجاوز ذلك إلىٰ الاستدراك بمعالجة أسباب العجلة، والتخلص منها، وتوطين النفس على الروية والصبر والتحري في كل ما من شأنه أن يمس بنسيج شبكة العلاقات الروحية والعاطفية والاجتماعية للأسرة.

منارة رؤية الآخرين كما هم لا كما تريد أنت أن يكونوا

هي مقدمة كل علاقة ناجحة بهم، لأن ذلك يتيح للإنسان الفهم الصحيح للآخرين، وامتلاك القدرة على حسن التعامل معهم، سواء بالاستفادة مما عندهم، أو بإفادتهم مما عندك.

إن ما نريد أن يكون عليه الناس، هو نتيجة طبيعية لفهمنا لما هم عليه أولاً، فإذا تيسر لنا فهم الآخرين كما هم، أمكننا بعد

ذلك أن ندفعهم ونساعدهم للمضي قدماً إلى ما نريد، إذا كان ما نريده يناسبهم ويصلح لهم، ويستطيعون بلوغه! وإلّا فإن الله تعالى خلق البشر متنوعين ومتمايزين ومتميزين ومتكاملين، وفي ذلك تكمن عبقريتهم وفعاليتهم، وحاجتنا إليهم، وحاجتهم إلينا، ومن الخطأ التربوي والاجتماعي الفادح، تنميط الناس وقولبتهم ونسخهم على صورتنا أو شاكلتنا، أو سجنهم في مصالحنا نحن! إن أي توجه نحو هذه السياسة أو الفلسفة في إدارة العلاقات الزوجية والأسرية، يؤدي لا محالة إلى إفقار هذه الأسرة من إمكانية التنوع، والحكم عليها بالموت أو الشلل الاجتماعي النصفي.

منارة حسن الاستماع للآخرين

وإدراك فحوى وحقيقة ما يريدون بالضبط، دون تأويل أو تفسير إسقاطي منا، هي مقدمة كل علاقة مثمرة وناجحة معهم. وسوء الاستماع إليهم، أو الإعراض عنهم، والتهوين منهم، هو مقدمة كل علاقة فاشلة بهم. فتعلّم كيف تصغي للآخرين، وتجعلهم يتحدثون إليك بانشراح واطمئنان واسترسال. ومن

تعلّم كيف يستمع أتقن كيف يتكلم ويؤثر ويفيد بعد ذلك.

فالإقبال على المتحدث، والاهتمام بكلامه، والتأكيد على أهمية بعض ما تراه مشتركاً بينكما، أو جديداً ومفيداً بالنسبة لك، والحرص على عدم مقاطعته بدون ضرورة.. كلها أمور تؤلف بين القلوب، وتقوي العلاقات وتمتّنها. فالناس من عادتهم أن يحترموا ويقدروا بل ويحبوا من يستمع إليهم.

ومن الأخطاء المنهجية والسلوكية والأخلاقية الكبيرة، التي تُرتكَب في هذا السياق، وتترك تأثيراتها السلبية على العلاقات الأسرية والاجتماعية عامة، هو ما يعتاده بعض الناس من تحضير ما سيقوله، دون أي اهتمام بما يقوله الآخرون، فهو لا يحرص على الإصغاء إليهم، بل ينتظر متى ينتهون من كلامهم، ليقول لهم ما حضَّره في نفسه مسبقاً، حتى ولو لم تكن له علاقة بالموقف الراهن! الأمر الذي يفقد الموقف فاعليته تماماً، ويدخله في متاهات الجدل وسوء التفاهم.

إن سوء التفاهم في كثير من الأحيان، يكون ناتجاً عن سوء الفهم ابتداء، لأن طرفي العلاقة لا يقفان على أرضية

واحدة، وكأنهما يتكلمان لغتين مختلفتين تعيقان عملية الفهم ثم التفاهم. فالفهم إذن هو مقدمة التفاهم.

منارة الشكر والتنويه بجهد الآخرين

إذا بدر منهم ما هو جيد وجميل وناجح، مهما قلّ أو كثر، وقد جبل الناس على حب واحترام من أحسن إليهم. والشكر والثناء الحسن من أعظم الإحسان إلى الناس. وتتأكد أهمية الاسترشاد بهذه المنارة، بشكل دائم، في الحياة الزوجية خاصة، من غير تكلف أو اصطناع أو منافقة طبعاً. وفي الحديث أنه: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»(1). فالشكر قانون الحياة، وسر نجاحها، سواء في العلاقة بالله أو في العلاقة بالخلق. كما جاء في القرآن: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ ﴾ [إبراهيم ١٤/ ٧].

فلا تتردد أو تغفل عن شكر شريكك في الحياة الزوجية، والتنويه بكل عمل جيد أو مفيد يقدمه. لا تتردد أن تعبر عن

---

(١) الألباني في صحيح الترغيب رقم ٩٧٣.

استلذاذك بالطعام وأنتما تتناولان الطعام معاً. أو تعبري لزوجك عن سرورك بأناقته، أو سعادتك بمشاركته المتميزة في أي عمل اجتماعي في محيط الأسرة. وهكذا ينبغي أن يستمر الشكر والتنويه دون تكلف أو روتينية ما، من شأنها أن تفقده حيويته وفعاليته. فالشكر والتنويه عاملا تحفيز هامين في الدعم التربوي للشخص من ناحية، وفي الدعم لفعاليته الاجتماعية من ناحية أخرى، وفي رفع المستوى التكاملي الروحي والعاطفي والاجتماعي بينهما من ناحية ثالثة.

لنتأمل ماذا فعلت كلمة قالها رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص ﷺ يوم أحد، حينما اشتد أوار المواجهة، ورأى النبي سعداً يرمي ويقاتل دونه ببسالة ملفتة، فقال له: «**يا سعد ارم فداك أبي وأمي**»[1]، وظل سعد يفتخر بهذه الكلمة طوال حياته ويقول: «ما جمع الرسول ﷺ لأحد أبويه إلّا لي».

(١) الألباني في صحيح ابن ماجه رقم ١٠٧.

منارة الحذر من المنفّرات

في الفكر والسلوك والعادات الشخصية، لأن الطرف الآخر إذا وقع سمعه أو عينه على منفٍّر ما في رفيق حياته، سينطبع في نفسه، وربما أدى مع مرور الوقت إلى فتور وضمور في حرارة وحيوية العلاقة. لذلك فإن فطنة كل طرف في العلاقة الزوجية إلى خطورة المنفرات، حاجة ملحة في المحافظة على قوة العلاقة، ودعم حميميتها الروحية، وتلاحمها الاجتماعي.

والخبرات والتجارب والدراسات النفسية والسلوكية والجمالية والاجتماعية، تبين لنا كم هو فادح الخطأ الذي يرتكبه زوج يقبل على زوجته وفمه يفوح منه رائحة الدخان أو البصل أو الثوم أو بقايا الطعام! أو زوجة تقبل على زوجها وروائح المطبخ تنبعث من كل خلية فيها! وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يستنكر على من أكل ثوماً أو بصلاً أو طعاماً فيه رائحة كريهة، ألّا يقرب المسجد حتى تذهب ريحه[1]. وروي أيضاً أن من دخل المسجد كان يُخرج ويُذهب به إلى البقيع

(١) البخاري رقم٨٥٥.

حتى تذهب رائحته الكريهة[1]!

إن كثيراً من العادات اللفظية والسلوكية والنفسية الشاذة، تؤثر سلباً في شحذ روحية وحميمية العلاقات الزوجية والأسرية عامة، وتنفر طرفي العلاقة عن بعضهما البعض، وهو ما قد ينتهي بتدمير هذه العلاقة مع مرور الوقت، واستمرار تكريس هذه العادات السيئة.

فليحذر كل من الزوج والزوجة من أي منفر يكون في كلامهما، أو جسمهما، أو مظهرهما، أو سلوكهما، أو تصرفاتهما.. لأن ذلك قد يباعد بينهما روحياً وعاطفياً وسلوكياً، وينغص عليهما حياتهما، ويحرمهما من عمق الاستمتاع بها. مع ما أتاحه الله تعالى في هذه الحياة من نعم ومتع تغري الإنسان بالإقبال عليها، والاستمتاع بها.

إن من واجب كل طرف في العلاقة الزوجية، أن يبذل كل ما في وسعه من أجل تمكين شريك حياته من استيفاء حقه في

(١) مسند الإمام أحمد بتحقيق أحمد شاكر.

المتعة الروحية والعاطفية والاجتماعية المشروعة، وأن يحذر من حرمانه من ذلك أشد الحذر. وقد وعى المسلمون هذه الحقيقة فوجدنا صحابياً فقيهاً من طراز ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي». لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وفي حديث سلمان الذي سبق ذكره، أيضاً تأكيد حاسم على ضرورة استيفاء الحقوق المذكورة، فقد جاء فيه: «.. **إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعطِ كلّ ذي حقٍّ حقه**» فقال رسول الله ﷺ: «**صدق سلمان**»[1].

وهنا ملاحظة دقيقة، ينبغي الانتباه إليها جيداً، وهي أن حقك يمكنك أن تقصِّر فيه أو تتنازل عنه، ولكنك لا تستطيع أن تفرط في حق غيرك أو تتنازل عنه، بل يجب عليك أن توفيَّه له كاملاً قدر استطاعتك. وقد يحسن بنا هنا أن نستحضر موقف رسول الله ﷺ من رغبة نسائه في تحسين مستواهن

---

(١) البخاري رقم ١٩٦٨.

الاجتماعي. فقد خيّرهن بين الرضا بما هو عليه أو التسريح الجميل، لما لم يستطع الوفاء بمطالبهن وخشي أن تُهضم حقوقهن. وفي ذلك جاء قوله تعالى في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب٣٣/ ٢٨-٢٩].

وروي أنه ﷺ كان: «**يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: اللّهمّ هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**» يعني القلب[1]. لأن حقوق الآدميين يجب استيفاؤها، أو استسماح أصحابها.

منارة حسن الظن والبعد عن تتبع العثرات والعورات

فإن سوء الظن والولع بتتبع العثرات والعورات، من حوالق العلاقات الزوجية الكبرى. في حين يعد حسن الظن،

(١) ابن كثير، التفسير ٢/ ٣٨٢.

والتغاضي عن العثرات، وستر العورات، من مُمَتِّنات هذه العلاقات، والمساعدة على تدارك العثرات وإصلاح حال العورات. وفي الحديث: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً**»(١).

وفي حديث آخر اعتبر النبي ﷺ تتبُّع عورات المسلمين من الأذى الموجب لنقمة الله على الإنسان وهتك ستره: «**يا معشر من أسلم بلسانه،ولم يفض الإيمان إلى قلبه! لا تؤذوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم؛ تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته ؛ يفضحه، ولو في جوف رحله**»(٢)ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال:«**ما أعظمك! وما أعظم حرمتك! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك**».

إن إشعار شريكي العلاقة الزوجية، أحدهما للآخر،

---

(١) البخاري رقم ٦٠٦٦.

(٢) الألباني في صحيح الترغيب رقم٢٣٣٩.

بحسن الظن فيه، مدعِّم قوي من مدعِّمات الثقة والمحبة بينهما، يجب عليهما الحرص عليه بشدة، وتعزيزه باستمرار، مع البعد على سوء الظن وما يقرِّب إليه من قول أو فعل أو موقف أو سلوك.

منارة البعد عن مواطن الشبهات

لأن كثرة ارتياد مواطن ومواقف الشبهات، وغياب التبرير المقنع للطرف الآخر، هي المرتع الخصب لنمو سوء الظن، والولع التدريجي بتتبع العثرات والكشف عن العورات، والانزلاق نحو متاهات اهتزاز الثقة وضمور السكينة النفسية والأسرية.

إن الإنسان إذا اضطر إلى شيء من مواطن الشبهات عليه أن يكون خفيف الظل، يقظاً حذراً، ثم عليه أن يقدم لشريك الحياة الزوجية أو لغيره، مبررات ارتياده لذلك المكان، أو التباسه بذلك الموقف. كما علمنا ذلك رسول الله ﷺ في مثل هذا الحديث التربوي البالغ الدلالات. فقد جاء عن السيدة صفية أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان

معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت فانقلبت، فقام معي، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «**على رِسلكما، إنها صفية بنت حيي فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيتُ أن يقذف في قلوبكما سوءاً، أو قال: شيئاً**»[1].

إن عمق وعي النبي ﷺ بخبايا النفوس البشرية، وبالقدرات الشيطانية العجيبة على الوسوسة والتحايل والكيد، لم تدعه يعتمد على ثقة الناس فيه، بل بادر إلى توضيح موقفه، لإزالة ما قد يحدثه ذلك الموقف من التباسات تفسد على الرجلين قلبيهما، وتشوش على ثقتهما فيه! وهو ما يعلمنا درساً تربوياً ومنهجياً بليغاً في البعد عن مواطن الشبهات، وإذا تلبسنا بها لزم علينا أن نزيل الالتباس من أذهان شريك الحياة أو غيره من ذوي العلاقة.

---

(١) البخاري رقم ٣٢٨١.

منارة التجديد والإبداع المستمر

لمواجهة مضاعفات الاعتياد والألفة والوتيرية الجامدة، التي تصيب الحياة الزوجية بالرتابة وأحياناً بالملل، وضعف الإحساس بالاستمتاع بنعمة الحياة الزوجية. فكل طرف في العلاقة الزوجية معني بالعملية الإبداعية التجديدية المستمرة في الحياة، ولا ينبغي أن ينوء بحملها طرف لوحده، لما في ذلك من ظلم من ناحية، وتعريض للحياة الزوجية لأخطار الفتور والرتابة والضمور البطيء في حيويتها العاطفية والروحية والاجتماعية من ناحية أخرى.

والتجديد في العلاقات الزوجية والحياة الأسرية عامة، ينبغي أن يكون شاملاً ومتكاملاً ومستمراً، يستوعب كل مناحي هذه الحياة الفكرية والروحية والعاطفية والسلوكية والمظهرية، بحيث ينتعش الجو العائلي، ويشعر معه كل أصحاب العلاقة بأنهم يستمتعون به معاً، وأنهم يحسون بالراحة والاطمئنان والسكينة والسعادة والبركة. فتزداد حيويتهم وفاعليتهم الاجتماعية أكثر، حتى يحافظوا على ذلك

المستوى الراقي من العلاقات العاطفية والروحية، ويدعموا ذلك المستوى المتقدم من الرفاهية والتكاملية الاجتماعية.

منارة الإدارة المشتركة للحياة العائلية

بجعل الشورى أمراً تربوياً ناظماً لكل شؤون الحياة العائلية. لما في ذلك من تأليف للقلوب، وتمتين للصلات، وتعزيز للثقة، وشحذ لروح المسؤولية لدى كل طرف في العلاقة الزوجية، ورفع لمستوى كفاءته الفكرية والتدبيرية والإبداعية.

وهذا المسلك المنهجي التربوي في إدارة شؤون الأسرة، تنعكس آثاره الإيجابية الكبيرة على الأطفال فيما بعد، عندما ينشؤون في مثل هذا الجو التربوي الحيوي التكافلي التكاملي المنسجم، ويمتصون قيمه الفكرية والمنهجية والسلوكية، ويعكسونها في حياتهم وفي علاقاتهم الاجتماعية.

والحياة العائلية إذا اختلت إدارتها لصالح طرف واحد فيها، اختلت تبعاً لذلك الحياة الزوجية كلها أو جلها، ودخلت حالة الفقر الفكري والروحي والاجتماعي، لأنها في هذه الحالة تسير بطاقة أو قدرة واحدة وليست بطاقتين أو

قدرتين متكاملتين كما هو مطلوب. ولعل الكثير من المسلمين انحسر عندهم مفهوم القوامة إلى المستوى الذي أصاب الأسرة بالشلل الاجتماعي النصفي، الذي اقتصر فيه دور الزوجة على تلقي توجيهات الزوج وتنفيذها فقط!

منارة الحذر من تدخلات المحيط في الشأن الأسري الخاص

ففي كثير من الأحيان، تؤدي تدخلات محيط الأسرة الممتدة ومحيط الصداقة، إلى إلحاق أضرار باستقرار وسكينة الأسرة الصغيرة، والدفع بها في دوامات التجاذبات التنافرية المنهكة بين أقرباء الزوج وأصدقائه من جهة، وبين أقرباء الزوجة وصديقاتها من جهة أخرى. لذلك يتعين على طرفي العلاقة الزوجية المباشرة، الحرص على وقاية عش الزوجية من كل مؤثر خارجي سلبي، من شأنه أن يوتِّر هذه العلاقة، أو يصيبها بالفتور. كما يتعين على هذه القرابات والصداقات أن لا تدس أنفها في الحياة الزوجية للآخرين، وأن تكون عوناً لهم على تحقيق السكينة والاستقرار في حياتهم.

منارة إذا أردتَ أن تُطاع فاطلب المستطاع

لأن طلب ما لا يستطاع أو لا يطاق من الطرف الآخر، تعنّت، قد يتكلف تحقيقه لك مرة أو مرتين أو ثلاثة، لكن ذلك لن يدوم طويلاً، وسيكون مدعاة على التذمر وفساد ذات البين. فاحذر من تكليف صاحبك ما لا يستطيع تلبيته لك. والإنسان إذا حمل الأمر الثقيل على الناس مرة واحدة ردوه عليه مرة واحدة.

لذلك علمنا القرآن أصولاً عظيمة في هذه الآية العظيمة، الجديرة بالتأمل والتدبر. قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة٢/ ٢٨٦].

منارة القدرة على توقيت تحقيق الرغبات وإنجاز الأعمال

لأن القدرة على تلبية الرغبات والاستجابة للنصائح

لا تتأتى في كل وقت، بل هناك أوقات يكون فيها الإنسان أكثر قابلية واستعداداً لتلبية الرغبات، وهي عموماً أوقات فراغ الإنسان وراحته وخلو باله من الضغوطات والمنغصات. كما أن هناك أوقاتاً لا يصلح فيها التوجيه أو طلب تلبية الحاجات، وهي أوقات قلق الإنسان وتعكر مزاجه، وهجوم المنغصات عليه.

وهذا يقتضي من طرفي العلاقة الزوجية يقظة ومعرفة بأحوال وظروف بعضهما البعض، حتى يسهل عليهما تقدير الأوقات المناسبة لتلبية رغباتهم وإنجاز أعمالهم بيسر وبركة.

منارة طلب الكمال في الذات لا خارجها

عندما ينجح الإنسان في تغيير نفسه، وحملها على صفات الكمال البشري المطلق، عندها فقط يستطيع أن يطالب غيره بالكمال، ويكون لقوله تأثيره المطلوب، أما قبل ذلك فإنه يضرب الريح بالهراوة كما يقال! وفي الحكمة:

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثله عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيم.

منارة التنظيف المستمر للمشاعر من السموم النفسية

فكل فكرة أو موقف خاطئ تجاه الذات أو الآخر، يتحول مع مرور الوقت إلى سم نفسي وسلوكي واجتماعي، يسمم العلاقة بالنفس وبالآخرين. لذلك ينبغي على كل طرف في العلاقة الزوجية أن يقوم بالتنظيف الدوري المستمر لمنظومة أفكاره ومشاعره، وألا يدع الفرصة أبداً لهذه السموم لتستقر في نفسه، وذلك عبر المصارحات والمكاشفات الذاتية التي تجعل كل طرف في العلاقة الزوجية يكتشف الحقيقة ويصحح أفكاره ومواقفه.

وفي الحديث النبوي التالي وصف دقيق لآلية استشراء السموم النفسية والفكرية والسلوكية في حياة الإنسان، وقلبها رأساً على عقب، بحيث تختلط لديها المفاهيم، وتختل عندها الموازين، كنا عند عمر. فقال: أيُّكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تُكفِّرها الصلاة والصيام والصدقة. ولكن أيُّكم سمع النبي ﷺ يذكر

الفتن التي تموج موج البحر. قال حذيفة: فأُسكت القوم. فقلت: أنا. قال: أنت، لله أبوك! قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً. فأيُّ قلبٍ أُشربها نُكت فيه نكتة سوداء. وأيُّ قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء. حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مرباداً، كالكوز مجخيا لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً. إلّا ما أشرب من هواه**»[1].

من هنا تأتي الأهمية البالغة لعملية التنظيف الدائم للفكر والنفس والسلوك من الذنوب، التي هي عبارة عن سموم موهنة وقاتلة، يجب على الإنسان أن لا يمنحها الفرصة للتفريخ والاستفحال، بل عليه أن يبادرها بالتخلص منها عبر استفادته من معطيات علوم المراقبة والمحاسبة والاستغفار والتوبة والثبات وفعل الحسنات المذهبة للسيئات.

---

(١) مسلم رقم ١٤٤.

منارة اتقاء مغبة الحسد

لأن كل ذي نعمة محسود، ومن لم يعرف كيف يشكر النعمة ويحفظها من مؤثرات الحاسدين، أحاطت به المنغصات، وأفسدت عليه حياته. ويتم الاتقاء بالتواضع والبعد عن الغرور والعجب والتكبر والتفاخر والتطاول، لأن تلك السموم تهيج الحسد وتؤجج نيرانه في النفوس المريضة، التي تندفع بلا هوادة لإزالة النعمة وإحلال المنغصات والنقم بدلها.

فالحسد مصيبة مزدوجة الأخطار، لأنها تضر بصاحبها أولاً، عندما تفسد عليه قلبه وتفكيره وسلوكه وعلاقاته بالآخرين، وتشغله عن تزكية نفسه، وتأكل حسناته كما تأكل النار الحطب[1]. وعندما تضر بالآخرين وتلحق الأذى بحياتهم ومصالحهم؛ سواء بتأثيرات غير منظورة، أو بتأثيرات منظورة قوامها البغض والمكر والإيذاء وتفويت الفرص والمصالح على الناس، كما في الحديث: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد**

(١) الألباني في تحقيق رياض الصالحين رقم ١٥٧٧.

والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين. والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم: أفشوا السلام بينكم»[1].

فالحسد كما نرى ارتقى به الفقه السنني النبوي إلى مستوى القانون العام المهلك للمجتمعات البشرية، لأنه إذا سمح له بالاستشراء في النفوس، امتد منها إلى واقع الحياة ليطبعها بالتغاير والتباغض والتنابذ والمكر الذي يفتت شبكة العلاقات الاجتماعية، وينهك قوى المجتمع من الداخل.

منارة الاستعصاء على الاستلاب والإمعية

لما فيهما من سحق لذاتية الإنسان، ومسخ لهويته الحضارية، وتحريك لقواه في الاتجاه المضاد لنهضة مجتمعه وأمته، وتحويله إلى أداة بليدة لتسويق أطروحات الآخرين وخدمة مصالحهم على حساب مصالح مجتمعه وأمته.

وفي حديث للترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تكونوا**

(١) الألباني في صحيح الترمذي رقم ٢٥١٠.

إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساؤوا فلا تظلموا»[1].

والأسرة تعتبر بلا شك المحضن والحصن الأول، الذي يمنح أجيال المجتمع والأمة الحصانة الفكرية والروحية والسلوكية والاجتماعية، التي تمكنها من الاستعصاء على الاستلاب الثقافي والحضاري، وتعطيها قدرات ذاتية للإشعاع على ما حولها.

وقد سبق أن أشرت إلى أن هذا المحضن العريق من محاضن النهضة الحضارية، تعرض لاختلالات كبيرة وعميقة، بعضها تاريخي موروث، وبعضها وافد دخيل، كادت تفقده بوصلة تحديد الاتجاه، وتوجيه المسار، وضبط الأهداف والأولويات، كما يبدو ذلك من اضطراب وتضاؤل أدائه التربوي والاجتماعي بالخصوص. وهو ما يستدعي مواجهة

(١) الألباني في مشكاة المصابيح رقم٥٠٥٧.

جدية للعوامل والمؤثرات السلبية التي تدفع بالأسرة المسلمة إلى المزيد من الاستلاب والتميع وفقدان الدور والموقع، في وقت أحوج ما تكون فيه الأمة إلى قوة وتماسك هذه المؤسسة المركزية في حركة النهوض الحضاري.

إن الاستلاب الحضاري يشكل تحدياً ضخماً لحركة النهوض الحضاري للأمة، خاصة وأن نفوذه قد استحكم في مؤسسات ثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية.. ذات شأن في المجتمع، وهو يتحرك بكل جدية وفعالية ليطوق الأسرة ويخنقها، ويعيد إنعاشها وبعثها في اتجاه خدمة أغراضه الاستتباعية الاستكبارية الطاغوتية اللاإنسانية.

إن الأسرة بوصفها حصناً خلفياً أخيراً في عمق هوية المجتمع والأمة وذخيرتها الحضارية، تحتاج إلى حماية من الاستلاب وفقدان الدور والموقع والوزن، حتى تتمكن من الصمود في هذا المعترك الضاري الحاسم من جهة، وتؤدي دورها المركزي في تأصيل وتفعيل حركة النهضة الحضارية للأمة.

منارة تطوير الوعي الثقافي الذاتي باستمرار

وأقصد به هنا الاستمرار في الانفتاح على الثقافة الإنسانية العامة، وخاصة الثقافة المتصلة بعلوم النفس والاجتماع وفقه الإدارة القيادية.. فإن فيها خبرات عظيمة النفع، تساعد على معرفة الذات، واستكشاف أغوارها، وتزكيتها، وترقية السلوك، ورفع مستوى فعالية الأداء الاجتماعي. كما تساعد على معرفة الآخرين، وإتقان فنون بناء العلاقات معهم، أو مواجهة ما يصدر عنهم من مواقف غير سوية.

فالأسرة المسلمة لكي تواجه تحديات الاستلاب الضارية، وتتمكن من أداء دورها في حركة النهضة الحضارية للأمة، بأصالة وفعالية واطراد، تحتاج إلى **ثقافة سننية متكاملة ومتوازنة ومتجددة**، تستوعب ما تيسر من معطيات وخبرات وإمكانات معرفية ومنهجية وتسخيرية فعالة، في ثقافتنا الذاتية وفي الثقافة الإنسانية بصفة عامة.

هذه بصفة عامة مجموعة من المنارات الهادية على طريق الحياة الزوجية المفعمة بالود والرحمة والسكينة والبركة، يشكل

كل منها أصلاً مستقلاً من أصول الوعي الأسري والاجتماعي، ويصلح أن يكون موضوع دورة تربوية متكاملة في «**مشروع التأهيل والوقاية الأسرية**»، الذي يجب أن تنهض به مؤسسات الصحوة والمجتمع والدولة، لدعم أصالة وفعالية واطرادية حركة النهوض الحضاري بالأمة.

وصيـة غاليـة

ولعل خير ما نختم به هذه الوصية المقتضبة، هو تقديم هذه الوصية الغالية التي قدمتها إحدى الأمهات الحكيمات لابنتها ليلة زفافها. وهي لا تخص المرأة فقط، بل الخطاب فيها يعني الزوج والزوجة معاً، فكل واحد منهما تعنيه أصول وقواعد هذه الوصية مباشرة، باعتبار الحياة الزوجية إرادة مشتركة قائمة على حقوق وواجبات متبادلة، لا يمكن للحياة الزوجية أن تقوم بدون أداء كل طرف لما يخصه في هذه الحياة المشتركة.

ونخطئ نحن الرجال عندما نعتقد أو يعتقد بعضنا بأن الكثير من النصائح والتوجيهات الواردة هنا تخص المرأة وحدها، ونُخرج نحن أنفسنا من دائرة المسؤولية، ونُلقي بها على المرأة وحدها، وهو المسلك الذي يلحق ظلماً كبيراً بالمرأة، ويضاعف من همومها، ويعجزها في النهاية عن القيام بكامل

واجباتها، فتنهار العلاقة الأسرية، ويعم ضررها الجميع.

والوصية باعتبارها تنتمي إلى عصور متطاولة في القدم، وتستوحي سقف ثقافتها وأعرافها وحاجاتها وتطلعاتها المعاصرة، فإنها لا تخلو من عبارة أو فكرة أو توجيه قد لا يكون منسجماً بالضرورة مع سقف وأعراف وحاجات وتطلعات ثقافتنا المعاصرة، ولكن ذلك كله لا يفقدها قيمتها الفكرية والتربوية الكبيرة. فالعبرة بعمومية الأفكار وعمقها ومضمونها التربوي المنطلق في آفاق الثقافة السننية البناءة. وهذا نص الوصية الحكيمة:

في فلسفة الزواج[1].

أي بُنيّة: اعلمي لو أن امرأة استغنت عن الزواج لِغِنَى أهلِهَا لكنت أغنى الناسِ. ولكنّ النساءَ للرجال خُلقْنَ، ولهنّ خُلِـقَ الرجالُ.

يا بنيّتي: احفظي عني عشر خصال تكن لك ذخراً.

(١) كل العناوين الفرعية هي من وضعنا نحن، بغرض إبراز وتلخيص الأفكار الكلية في الوصية، وتسهيل عملية الاستيعاب التربوي لها.

في أصول المعاشرة الزوجية:

أما الأولى والثانية: فالمعاشرة له بالرضا والقناعة، وحسن السمع له والطاعة.

في أصول الأناقة والجاذبية:

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع أنفه، وموضع عينيه، فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشمنّ منك إلا أطيب الريح.

في الراحة والسكينة المنزلية:

وأما الخامسة والسادسة: فالهدوء عند منامه، والتفقد لموضع طعامه، فإن مرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

في الرعاية المالية:

وأما السابعة والثامنة: فالاحتفاظ بماله، والإرعاء على حشمه وماله.

في الطاعة والأمانة:

وأما التاسعة والعاشرة: فإياك أن تعصي له أمراً، أو تفشي

له سراً. فإنك إن عصيت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمنِ غدره.

في مراعاة الحال:

وأعظك بعد ذلك من الفرح إن كان تَرحاً - حزيناً - أو من التَّرَحِ إن كان فرحاً[1].

لله درك من حكيمة يا أم إياس، فقد أوجزتِ وأبدعتِ وأفدتِ، ومنحتنا من الخبرة والحكمة والوعي الأسري المتقدم، ما هو كفيل فعلاً بتحقيق جو المودة والرحمة والسكينة والبركة في الأسرة.

۞ ۞ ۞

(١) الوصية مأخوذة من: طبائع النساء، لابن عبد ربه الأندلسي ٢٨.(مكتبة دار القرآن، القاهرة ١٤٠٥).

دعــاء

في نهاية هذه الخاطرة أو الوصية، أقول:

لابنتي العزيزة عائشــة، ولزوجها الفاضل مــراد

بارك الله لكما، وبارك عليكما، وجمع بينكما في خير، ووهبكما ذرية مؤمنة صالحة، تقر بها أعينكما وأعين المتقين من المؤمنين والناس أجمعين. ووفقكما لدوام الطاعة، وصلاح الحال، وكثرة البركة، وعمق المودة والرحمة، وشيوع السكينة الصادقة بينكما، وجعلكما قدوة للمؤمنين، ورحمة للخلائق أجمعين. وأعانكما على دوام الشكر للنعم، فإن من شكر زِيـدَ له في النعمة وبورك له فيها، وعلى حسن التوكل، فإن من يتوكل على الله فهو حسبه.

اللّهمّ إنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك، والتقت على طاعتك، وعزمت على التزام شريعتك،

فوثِّق اللّهمّ رابطتها، وأدِم ودَّها، واهدِها سبُلها، واملأها بفيض الإيمان بك، وجميل التوكُّل عليك، وأعِنها على ذكرك وشكرك وحسن عبادك، واحفظها من بين يديها ومن خلفها، واكتبها في المقبولين والمرحومين عندك، إنك نعم المولى ونعم النصير. وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين.

آمـين والحمد لله رب العالمين.

أبوك

الطيب بن مبارك برغوث

۞ ۞ ۞

ملاحق

أستسمح القارئ الكريم في إثبات هذه النماذج من الرسائل التي كنت قد كتبتها للزوجة حفظها الله، لصلتها المباشرة المكملة لجوانب من هذه الوصية المقتضبة، التي وجَّهتها لبنتي عائشة حفظها الله ولكل شابين مقبلين على تأسيس حياتهما الزوجية، ولكل زوجين أتمّا هذا التأسيس ومضيا على طريق الحياة الزوجية المباركة، وهما يتوقان إلى سيادة المودة والرحمة والسكينة والاستقرار في حياتهما الأسرية، ويتشوفان إلى وضع أسرتهما على طريق خدمة النهضة الحضارية للأمة. ولما في هذه الرسائل كذلك من توجيهات إضافية أخالها مفيدة بحول الله.

القوة التكاملية البناءة في الحياة الزوجية

الحياة الزوجية في طريق التكاملية

زوجتي العزيزة[1]: سمعتك المرة الماضية تقولين تعقيباً على رسالتي إليك: إنني أقوى منكِ في بعض الأمور! وأنا أتمنى أن أكون كذلك، قوياً في ديني وسلوكي وعلاقاتي وسائر حياتي كما تتصورين، كما أتمنى أن تكوني أقوى مني في كل شيء كذلك! لأن قوتك قوة لي، وقوتي قوة لك، وضعفك ضعف في حياتي، وضعفي ضعف في حياتك! فالله تعالى نبهنا إلى أن المرأة قوة للرجل وأن الرجل قوة للمرأة، وأنه لا قوة لأحدهما دون

(١) **زوجتي العزيزة:** حفظها الله ورعاها. السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. وبعد:

أدعو الله تعالى أن يطوي لنا الزمن، وأن يجمع بيننا في أقرب فرصة، وأن يسهل لنا سبل الوصول إلى ذلك، إنه نعم المولى ونعم النصير لعباده وأوليائه الصالحين المصلحين........ ودمت في رعاية الله وحفظه وواسع نعمته ورحمته. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الآخر! فقال سبحانه: ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم ٣٠/ ٢١].

فالأزواج هنا مقصود بها الرجل والمرأة معاً، إذ هما شقان متكاملان لا معنى لأحدهما دون الآخر، وأن أحدهما لا تتحقق سكينته النفسية، ولا يتحقق توازنه العقلي والجسمي والاجتماعي، ولا تعظم فعاليته الاجتماعية.. إلّا عبر تطابقه مع شقه الآخر من خلال نظام الزواج الشرعي المتكافئ، ومن لم يوفق إلى شقه الآخر المكافئ له، ظل مختل التوازن، منقوص العطاء في الغالب الأعم! وهو ما يقصده الحكماء بقولهم: «إن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»! وفي الحديث الذي رواه أبو داوود: «النساء شقائق الرجال». والعكس صحيح، فلا كمال للرجل دون شقه الآخر، كما تؤكد ذلك السنة المطهرة: «من تزوج فقد استكمل نصف دينه، فليتق الله في النصف الآخر»، ومن عزف عن الزواج ظل كيانه منقوصاً في سكينته وتوازنه وانسجامه الاجتماعي، فالكون كله يؤدي كل عنصر فيه وظيفته الطبيعية

بالكفاءة والفعالية المطلوبة، عبر نظام أو قانون الزوجية، كما ينبه القرآن على ذلك: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات٥١/ ٤٩]. ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس٣٦/ ٣٦]. ليتكاملا ويأخذا القوة من بعضهما البعض!

معوقات في طريق تكاملية الحياة الزوجية

زوجتي العزيزة: فقوتي قوة لك، وقوتك قوة لي! بشرط أن يتوافر التكافؤ والتكامل الضروري بيننا في المشاعر والأفكار والهموم والاهتمامات الكبرى، وأن تكون لدينا كذلك الحدود الدنيا من الثقافة النفسية والاجتماعية والشرعية والفكرية، المساعدة على تعميق مشاعر المحبة والاحترام والتراحم وحمايتها، والاستمتاع الأمثل بها.

فكم من أناس يحبون بعضهم بعضاً، ولكنهم لايستمتعون بهذا الحب، لأنهم لم يطوروا ثقافتهم النفسية والاجتماعية والفكرية والشرعية، التي تساعدهم على تنمية

هذه المشاعر وتعميمها فيما بينهم، وفي محيطهم الأسري، وعدم تركها مخبوءة في ثنايا النفوس، لأن ذلك يضعفها ويؤدي بها إلى الضمور، مما يجعل الحياة الزوجية تعاني من الجفاء والبرودة وقلة الحيوية..

فالحياة عامة تحتاج إلى خبرة من أجل الانتفاع بها، والحياة الزوجية تحتاج إلى خبرة أكبر من أجل الاستمتاع بها والمحافظة عليها. وإني أدعو الله تعالى أن يعيننا جميعاً لنكون لباساً روحياً ونفسياً واجتماعياً ساتراً وغامراً ومنعشاً لبعضنا البعض، كما قال تعالى:﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة٢/ ١٨٧]. وهو تعبير عجيب عن المحبة والمودة والتراحم، والالتحام الروحي والنفسي والاجتماعي بين الرجل والمرأة! وهو ما نطمح أن نقترب منه، وأن نحظى بذوق لذته معاً، عبر التماس الوسائل الموصلة إلى ذلك إن شاء الله تعالى!

زوجتي العزيزة: من جهتي أقول لك بكل صدق وثقة: إن قوتي- إن كانت لي قوة كما تتصورين-! هي قوة لك، تعملين بها ما تشائين مما يسعدك في الدنيا والآخرة، وأدعو الله

تعالى أن يوفقك لتجعلي قوتك في خدمة سعادتنا معاً، بل وسعادة غيرنا من المؤمنين والناس أجمعين، فالمؤمن يطمح دائماً إلى أن يكون إماماً للمتقين، لأن إمامة المتقين – أي قدوتهم – هي أعلى ما يمكن أن يستشرفه طموح الإنسان في هذه الدنيا!

شروط التكاملية في الحياة الزوجية

وإذا سألتني رأيي في شروط التكاملية في الحياة الزوجية، فإنني سأقول لك بلا تردد: إنها تتوقف على مدى اقتناع طرفي العلاقة الزوجية،أن الحياة الزوجية تتأسس على تكامل قوتي الطرفين، وتؤتي ثمارها المرجوة من خلال الاستثمار الأمثل لطاقتيهما معاً. ثم يأتي بعد هذا عامل آخر لا يقل أهمية وهو مدى قدرة كل واحد من طرفي العلاقة الزوجية على اكتشاف مواهب وقدرات شريكه في الحياة، وتبصيره بها، إن لم يكن واعياً بها، والعمل على مساعدته بكل إخلاص وصدق بل وحماس، على تنمية تلك القدرات واستثمارها بفعالية في صالح الحياة الزوجية المشتركة.

إذا استطاع طرفي العلاقة الزوجية أن يرتقيا بوعيهما إلى

هذا المستوى من الفهم والتكامل، فإن حياتهما ستتحرك في الاتجاه الصحيح بفعالية غير عادية، لأن الحياة الأسرية ستتسم باليسر والمودة والرحمة والسكينة، وفعالية الإنجاز، بعد تقاسم أعبائها، وتمكينها من الاشتغال بكامل طاقتها. وهو ما يجعلني أقول بأن وراء كل إنجاز اجتماعي عظيم أو تاريخي، تكامل بين طرفي العلاقة الزوجية، وليس فقط كما يقولون وراء كل عظيم امرأة، لأن هذا الإنجاز الذي يكون الرجل قد حققه بمساعدة امرأة، غالباً ما قد يتم على حساب المرأة، ونحن في حاجة إلى تكامل يؤمِّن حقوق كل من طرفي العلاقة الزوجية معاً، وليس أحدهما فقط.

وهذه التكاملية البناءة في العلاقات الأسرية والاجتماعية، أكد عليها حديث نبوي رواه البخاري، يعد أصلاً عظيماً من أصول الوعي الاجتماعي، وقانوناً أساسياً من قوانين الفعالية الاجتماعية، جاء فيه: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته؛ فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن

رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته،... والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

فكل طرف في العلاقة الأسرية أو الاجتماعية له وظيفته ودوره الذي يجب عليه أن يضطلع به، فإذا تعطل دوره، أو اضطر إلى القيام بأدوار إضافية منهكة، تعطلت الوظيفة الأسرية والاجتماعية، أو أدِّيت بطريقة لا تسمح للحياة الأسرية والاجتماعية بالاستجابة لحاجاتها الضرورية، ومواجهة التحديات المحيطة بها، الأمر الذي يجعلها في مهب الأخطار.

زوجتي العزيزة: وبودي أن أحدثك عن مشكلة تعاني منها الحياة الزوجية لكثير من البشر، وخاصة المسلمين منهم، مع الأسف الشديد، وهي تحسّس أو غيرة الرجل من قوة المرأة ونجاحها، وتحسّس وغيرة المرأة من قوة الرجل ونجاحه! لكن الوقت متأخر، وأنا متعب الآن، ومضطر إلى توديعك إلى لقاء آخر بحول الله، أستكمل لك فيه الحديث عن بعض خواطري، وأفضي لك ببعض همومي ومشاعري وتطلعاتي.

ولا أنسَ في الأخير أن أشكرك على عواطفك النبيلة نحوي، وعلى حبك لي، واستعدادك لمشاركتي حياتي في مسرّاتها، وأحزانها التي ندعو الله أن يجنبنا إياها، وأن يخففها عنا إن ابتلانا بها، كما عبرت عن ذلك في رسالتك الأخيرة، التي ستجد مني تعليقاً على بعض نسماتها المنعشة في أوقات لاحقات بحول الله.

الفجوات المضرة بالحياة الزوجية

زوجتي العزيزة:كما قلت لك في نهاية الرسالة السابقة، فإن الحياة العائلية لأغلب البشر، تعاني من فجوات كثيرة، تحرمها من الانسجام والتكامل والاستمتاع الأمثل بالنعم والمتع التي أودعها الله تعالى في هذه الحياة الزوجية، التي هي في حقيقتها **سكينة ومودة ورحمة!** وهو كل ما تحتاجه فعلا الحياة السعيدة للبشر.

فجوة التحسس من تميز وقوة أحد طرفي العلاقة الزوجية

وبودي أن أشير هنا إلى فجوة خطيرة من هذه الفجوات الكثيرة، المضرة بالحياة الزوجية، وهي تحسس كل من الرجل والمرأة من قوة ونجاح الآخر، والذي قد يصل إلى درجة الغيرة والحسد والتباغض والكيد أحياناً، الذي يحول الحياة إلى جحيم لا يطاق! لأن هذا النوع من العلاقة يقتل مشاعر المودة والرحمة،

ويسلب الحياة الزوجية حرارتها ودفأها وحيويتها، ويحرمها في النهاية من السكينة التي تمثل عمق وقوة الحياة الزوجية كما أرادها الله تعالى، وأجرى عليها فطرة البشر!

زوجتي العزيزة: والأخطر في ظاهرة تحسس الطرفين أو أحدهما على الأقل من قوة ونجاح شريكه في الحياة، هو انتقال هذا الجو المسموم وغير الصحي، إلى المحيط العائلي الأوسع، وفي مقدمته الأولاد، الذين ينشؤون في وسط يغتال المشاعر، ويؤسس للكبت والنفاق الاجتماعي والتباغض.. فيمتصّون منه هذه السموم التي تؤثر على توازن شخصيتهم، إن لم يتداركهم الله تعالى بصحة الفكر، وصحة الإيمان، وقوة العبادة.. التي تخلصهم من هذه العقد النفسية المميتة.

في أسباب وباء التحسس من تميّز وقوة الآخر

زوجتي العزيزة: قد تسألين من أين يتسرب هذا الوباء المميت للحياة الزوجية ليغتال أسمى وأطهر ما فيها وهي مشاعر المودة والرحمة والسكينة؟ فأقول لك: إن أسباب ذلك كثيرة، بعضها يعود إلى ضعف وعي الزوجين نفسيهما، أو

أحدهما، وبعضها يعود إلى ضعف وعي المحيط العائلي الأوسع، الذي ينقل نواقصه وأمراضه إلى كيان العلاقة الزوجية الجديدة، ويزرع فيها بذور سوء التفاهم بتدخلاته المختلفة فيها. وبعضها يرجع إلى ضعف وعي محيط الصداقات العائلية، حيث يمارس هذا المحيط بدوره تأثيراته السلبية على العلاقة الزوجية الجديدة، وينقل إليها أمراضه. وبعضها يعود إلى الجو الاجتماعي العام في المجتمع، والظروف التي تمر بها المجتمعات، وتترك آثارها السلبية على كيانات الأسر، خاصة من يفتقر منها إلى إمكانات المقاومة الفكرية والنفسية والسلوكية والاجتماعية المادية منها خاصة.. إلى غير ذلك من الأسباب والعوامل الكثيرة!

الفكرة القاتلة في العلاقات الزوجية

فنحن كثيراً ما نسمع على سبيل المثال من كل هذه المستويات المحيطة بالحياة الأسرية، وهي تنصح الزوجين، أن المرأة لا بد أن تعمل على السيطرة على الرجل والاستحواذ عليه، وقطعه عن محيطه العائلي الأوسع، وإرهاقه بالمطالب

الاجتماعية.. متوسلة إلى ذلك بوسائل غير مشروعة في الغالب، دون وعي منها،أن ذلك إضعاف لقوة الرجل، وحرمان له من الروافد الفكرية والنفسية والاجتماعية لهذه القوة، وهو ما يعد في النهاية إضعافاً للمرأة ذاتها، وتوهيناً للحياة الزوجية، وشحنها بأسباب وعوامل الموت الاجتماعي البطيء الذي يدفع الطرفان ثمنه الباهظ في حالة تفككها أو في حالة استمرارها الشكلي!

ونفس الفكرة يُشحن بها الرجل في مجتمعاتنا، فيعمل كل ما في وسعه من أجل السيطرة غير المبررة على المرأة، من أول لحظة، ويحرص على تجريدها من كل مكامن قوتها التي يحس بأنها ستشكل تهديداً لمنطق السيطرة عليها! لذلك كثيراً مايلاحظ كيف تبدأ الحياة الزوجية في التحول عقب انتهاء المراحل المبكرة للقاء المباشر بين الزوجين، حيث يبدأ الرجل شعورياً أو لاشعورياً في تنفيذ برنامج السيطرة، الذي تكون المرأة قد سبقته إليه، بحكم قوة الاستشعار أو الاستشراف المستقبلي لديها! وبهذا التنافس المحسوس وغير المحسوس،

تبدأ المضامين الروحية الطاهرة – المودة والرحمة والسكينة – للحياة الزوجية تعاني من الشد والجذب حتى تضعف تدريجياً، ويحل محلها الملل والضجر والنفور، وما يتلوه من الخصام والتنافر والنكد المنهك..

زوجتي العزيزة: إنها ثقافة خاطئة تماماً، بل وخطيرة جداً تلك التي تنبني على منطق السيطرة والاستحواذ على الطرف الآخر، وتستهدف تجريده من مكامن قوته وتميزه، وقولبته في اتجاه الاختزال المميت، الذي يلغي خصوصيته تماماً أو يكبتها ولا يسمح لها بالتعبير عن نفسها! لأن في هذه السيطرة، وهذا الاستحواذ والكبت، هدر للطاقة الضرورية الأخرى المكملة له، وتعريض للحياة الزوجية المشتركة للإفقار الفكري والروحي والعاطفي والاجتماعي، والحكم عليها بالحركة بطاقة واحدة سرعان ما يعتريها الوهن والقصور عن الاستجابة لحاجات وضرورات الحياة الزوجية خاصة، وضرورات وحاجات الحياة الاجتماعية عامة، وهو ما يحكم على هذه الحياة بالضمور والذبول والموت الاجتماعي!

ومن جهة نفسية فإن ظاهرة السيطرة والاستحواذ والكبت التي ينتهجها أحد طرفي العلاقة الزوجية أو كلاهما، تعبر عن اختلالات نفسية اجتماعية في التجربة الفكرية والتربوية والاجتماعية لهما أو لأحدهما، وإلا فإن التجربة السوية تنزع دائماً إلى التواضع والاعتراف بل والشعور الصادق بالحاجة إلى قوة وخبرة الآخرين، وخاصة الزوج أو الشق الثاني الطبيعي لتكامل الحياة الزوجية وانسجامها النفسي والروحي والاجتماعي، وهو ما يحتاج إلى علاج نفسي وثقافي يعدل العواطف، ويصحح الوعي، ويقوم السلوك، ويمنح الحياة الأسرية فرصا جديدة للنهوض والاستمتاع بالحياة.

الحاجة الملحة إلى الوعي الأسري الرسالي

زوجتي العزيزة: الموضوع طويل، وقد كنت منذ بداية الثمانينيات من القرن الماضي، أفكر في تنظيم «**دورات للوعي العائلي**»، خاصة عندما لاحظت أن تجارب زواجية عديدة، تمّت في إطار ما عُرف بالإخوة الملتزمين، أو المتدينين عامة، قد فشلت ولم تؤت ثمارها المرجوة. وقد انطلقت في البداية في

مشروع «**التدابير الوقائية من الطلاق في الإسلام**» الذي قدمته لرسالة الماجستير سنة ١٩٨٣ بين يدي التمهيد لهذه الفكرة، التي كنت أطمح إلى تحويلها إلى معهد حر لتعليم فنون بناء ووقاية الحياة الأسرية، عبر مشاريع الجمعية التي أسسناها في نهاية الثمانينيات، ولكن تحولات المجتمع، وغربتي عن البلد، وانشغالاتي الجديدة في مجتمع الغربة، قذفت بالفكرة إلى زوايا التهميش والنسيان، ولعل إخواناً آخرين في البلد تسعفهم الظروف فينهضون بمثل هذا المشروع! «**معهد التأهيل والوقاية الأسرية**».

إن وعينا الأسري في حاجة إلى مراجعات وتكييفات كثيرة، حتى نقترب به من حقائق الإسلام وآفاقه، وحقائق الفطرة ومطالبها، ومكاسب وخبرات الثقافة الإنسانية التي ذهبت بعيداً في تزويدنا بالوعي النفسي والسلوكي والاجتماعي الراقي، الذي يمنح الحياة العائلية دفئها وحيويتها في ضوء آفاق المودة والرحمة والسكينة والبركة، التي رسمها الإسلام للحياة الأسرية السعيدة.

زوجتي العزيزة: أعود لأقول: إن الحياة العائلية الصحيحة الناجحة، تقوم على التنمية التكاملية لقوة الأطراف المؤسسة لهذه الحياة، وأي اتجاه نحو إضعاف قوة أي طرف في هذه العلاقة، يصب في النهاية في ضعف الحياة الأسرية كلها، وهو ما يدفع ثمنه الباهظ جميع الأطراف بعد ذلك، وإن تفاوتت نسب ذلك من طرف إلى آخر! وفي هذه الحالة يكون الأطفال هم الطرف الأكثر تضرراً من هذه العلاقة الزوجية غير السوية، حيث يمتصون شحنات مضاعفة من العقد والأمراض التي تسمم حياتهم وتمزقها.

كما تقوم كذلك على قدرة كل طرف على حماية قدراته الذاتية، عبر تطمين الطرف الآخر المباشر في العلاقة الزوجية، والأطراف الأخرى المحيطة بها، بأن هذه القوة وهذا التميز هما في خدمة الحياة الزوجية والأسرية عامة، وليسا ضدها أو على حسابها، وإشعاره بأن كبت هذه الطاقة، أو السيطرة الاستحواذية المؤذية عليها، خطأ كبير سيلحق أضراراً بالغة بالسكينة الأسرية.

إن أناساً كثيرين ليست لديهم قدرات أو كفاءات وخبرات نفسية وفكرية ومنهجية لحماية تميزهم وقوتهم، فيعرضونها للكبت والاستنزاف والهدر، عندما يضعون أنفسهم وقوتهم في حالة منافسة أو مواجهة مع الطرف أو الأطراف الأخرى في العلاقة الزوجية، من أجل إثبات الذات حيناً، وتحقيق السيطرة حيناً آخر، حيث تنزرع بذور الغيرة، وينبت منها الحسد، وتستشري الدسيسة والمكر، وتنهار الثقة، وتتقلص شروط استمرار الحياة الزوجية.

إن الغيرة كمقدمة بين يدي الحسد والتباغض والمكر، تنجم عن عدم قدرة أحد طرفي العلاقة الزوجية عن تقدير وحماية قدراته الذاتية، بل يعرِّضها للكبت والهدر عن طريق الأنانية والشح والغرور والتكبر.. الذي يجعل الآخرين يغارون منه، ويحسدونه، ويمكرون به، ومن كثر حاسدوه والماكرون به، أوشكوا على إلحاق الأذى به، إن عاجلاً أم آجلاً، إذا لم يتدارك نفسه بالوعي الذي يحميه من نفسه ومن مناوئيه.

وإنني بحمد الله على وعي عميق بهذه الفجوة الخطيرة في

الوعي الأسري عندنا، وباذل جهدي، ليس في المحافظة على قوتك فحسب، بل وفي تنميتها قدر المستطاع، والذهاب بها إلى أبعد ما تطيقه، وفق قاعدة: «**كل ميسّر لما خُلق**».وقاعدة: «**خذوا من الأعمال ما تطيقون**»[1]، وهو ما يحتاج إلى وعي مقابل منك في تنمية قوتي والذهاب بها إلى أبعد ما تطيقه! وأعتقد أنني وإياك قادران على ذلك بحول الله وقوته.

۞ ۞ ۞

(١) الحديثان من رواية البخاري.

المتعة الروحية سر السعادة الزوجية

زوجتي العزيزة[1]:فإنني مشتاق إليكم، وداع الله تعالى أن يجمعنا على رباط الزوجية الطاهرة المبرورة في أقرب وقت، وأن يسهّل لنا طريق هذه الحياة المبرورة المباركة، الخصبة بكل أنواع ومستويات الروحانية الاجتماعية العالية، التي هي مقصد الحياة الأساسي في الإسلام، وفي فطرة البشر كلهم! إذ يطمح كل بشر سوي إلى أن يستمتع بحياته أمثل استمتاع، وأن تخلو هذه الحياة من أية منغصات تؤثر سلباً على هذا الاستمتاع، ويهيئ نفسه للاستمتاع الأشمل والأكمل والأدوم في المراحل التالية من «**دورته الوجودية**» الكبرى.

زوجتي العزيزة: إنني من خلال نظرتي الكلية للإسلام

(١) زوجتي العزيزة: حفظها الله ورعاها وأقر عيوننا بها، وأقر عيونها بنا.
السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.وبعد:...

لاحظت أن الشريعة جاءت أصلاً لاستكمال متعة الإنسان بهذه الحياة، وذلك عن طريق وضع كل طاقات الإنسان في خدمة هذا الاستمتاع، حتى أن الله تعالى أنكر أشد الإنكار على الذين يحرمون أنفسهم أو غيرهم من هذه المتعة الروحية المتكاملة، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف٧/ ٣٢].

والحياة يا زوجتي العزيزة لكي تكون متعة دنيوية كريمة، وتأهيلاً للمتعة الأخروية الخالدة، يجب أن تتكامل فيها بشكل ارتقائي مطرد، ثلاثة أنواع أو مستويات من الحياة الروحية وهي:

متعة الحياة الروحية الدنيا أو العادية

التي تشمل أنواع ومستويات المعاش المختلفة، المادية والمعنوية؛ من غذاء راق، ولباس أنيق، وصحة ممتازة، ومحيط اجتماعي وطبيعي نظيف وممتع، وتقدير اجتماعي من الآخرين،

وأولاد صالحين، ومحيط عائلي منسجم.. إلى غير ذلك من متع الحياة الطبيعية الراقية، التي تشكل المستوى الأول من الحياة الروحية، لأن كل متعة مادية أو معنوية تتضمن عمقاً روحياً، يحس الإنسان لذته ويتذوقها ويستمتع بها، والتي تبلغ مستويات عالية من الروحانية المادية، عندما يضعها الإنسان كلها في إطار الشكر لله تعالى. وقد أشار الحديث إلى هذا المعنى الروحي في المتعة المادية الدنيا، في قول النبي ﷺ الذي رواه البخاري: «**وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة ترفعها إلى في - أي فم - امرأتك**».

ولا يخفى يا أختي العزيزة بأن الوصول إلى كل هذه الأنواع والمستويات من المتعة الروحية المادية العظيمة، يحتاج إلى تأهيل معرفي ومنهجي وفني متكامل ومتجدد، يمكّن طرفي العلاقة الزوجية من معرفة سنن اكتشاف النعم أولاً، ثم سنن استثمارها ثانياً، ثم سنن الاستمتاع بها ثالثاً، ثم سنن المحافظة عليها رابعاً... وأظن بأن الكثير من المسلمين ما يزالون بعيدين عن ثقافة متعة الحياة الروحية المادية، لذلك فهم لا يستمتعون بحياتهم إلا استمتاعاً جزئياً ضئيلاً!؟

الـمتعة الروحية الوسطى

وأقصد بها العلاقة العاطفية الحميمية التي تنتهي إلى قمة الالتحام الروحي والجسدي بين الزوجين، حيث يبلغ الاندماج والتوحد والتكامل الوجداني بينهما منتهاه، ويعيشان أصدق وأقوى لحظات الروحانية ما فوق الطبيعية أو العادية، وهو ما نجد بعض معناه في حديث النبي ﷺ، الذي يرتقي بهذه العلاقة الروحية الحميمية العميقة إلى قمة متع الدنيا: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**[١]».

لذلك قـال ﷺ: «**حُبـب إليّ من دنيـاكم النســاء والطيب. وجُعلت قرّة عيني في الصلاة**[٢]».

ولكي يستمتع الإنسان يا زوجتي العزيزة بهذا المستوى العالي من الحياة الروحية، ينبغي له أيضاً أن يعمق وعيه وفقهه بسنن الحياة الروحية الوسطى، حتى يوسع مـــدى أو مساحة وعمــق هذا الاستمتاع، الذي يوسع بدوره عمق الإحساس

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه النسائي.

بطعم الحياة ولذتها، الذي لا نملك فيه نحن مع الأسف، إلّا ثقافة سطحية بسيطة، لا تساعد على الوصول إلى أغوار الحياة الروحية الوسطى، حيث كمال السكينة ومنتهى خصوبتها، التي غالباً ما نقف عند عتباتها ولا نلج إلى عوالمها الروحية المفعمة بالصدق والجمال والسعادة. لأن الزوجين وهما يندمجان تدريجياً في بعضهما البعض، يستعيدان المعنى العضوي والعاطفي والروحي المكثف لقانون الزوجية المحقِّقة للمودة والرحمة والسكينة كما نبّه إلى ذلك القرآن في حديثه عن أسرار الخلق البشري، ودور الحياة الروحية الوسطى في الارتقاء بهذه الزوجية إلى مستوياتها العليا من السكينة والاسترخاء اللذيذ!

ومن أجل تكثيف المعاني والأبعاد الروحية في المستويين الأدنى والأوسط من الحياة الروحية، وتجاوز سفوح الحسية الثقيلة فيها، والارتقاء بهذه الحسية إلى قمم الروحية الممتعة، يجب أن تتوافر في كل موقف وفعل وحركة وسكون وهمسة ولمسة.. النيَّـة الصالحة أولاً؛ بحيث يكون قصد ذلك كله لله، والطاعـة الصحيحة له ثانياً، بحيث يتم كل ذلك في موافقة وتناغم مع سنن الله في الاستمتاع بالحياة الروحية

الدنيا والوسطى. والشكر ثالثاً، بحيث يعترف المستمتع بنعمة الله عليه، ويحمده عليها بكل جوارحه وأنفاسه، حتى يزيده منها، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم١٤/٧]. أي تنقص لذة الاستمتاع بالحياتين الروحيتين الدنيا والوسطى، بنقص الشكر ومقدمتيه السابقتين النية والطاعة، وتزيدان بزيادتها!

وفي حديث نبوي أوضح رسول الله ﷺ، كيف يتحول كل شيء في حياة المسلم إلى عبادة بل وصدقة؛ بسلامة النية، وصحة العمل، وشكر النعمة. فقد جاءه بعض فقراء الصحابة وسألوه: يا رسول الله ذهب أهلُ الدُّثور بالأجور! يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، ونحن لا نملك من المال ما ندخل به مجال الخدمة الاجتماعية العامة مثلهم، فقال: «**أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة،**

ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[1].

فالزوجان وهما يبذلان ما يستطيعان من الجهد لإدخال السرور والبهجة على بعضهما البعض، وإعطاء كل منهما حق صاحبه في المسرات العاطفية والروحية، يؤجَـران على ذلك، كما نوّه الحديث إلى ذلك. فالأمر ليس واجباً وحقاً ونعمة فحسب، بل هو صدقة كذلك، تضاعف أجر شريكي الحياة الزوجية، بقدر ما يدخل كل منهما البهجة والسرور على صاحبه. وفي الحديث المرفوع: «**أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن**»[2]، وفي الحديث الآخر: «**من لقي أخاه المسلم بما يحب ليَسُرَّه، بذلك، سره الله عز وجل يوم القيامة**»[3].

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه الطبراني.

وقد استشعرت إحدى الصحابيات الجليلات هذه المعاني والأبعاد الروحية العالية في الحياة الزوجية، وكانت في علاقة غير حميمية مع زوجها الصحابي الجليل ثابت بن قيس بن شماس، وخشيت ألّا توفيَّه حقه وألّا تستوفي حقها منه، فجاءت إلى النبي ﷺ فقالت له: يا رسول الله: **«ما أنقم على ثابت في دين ولا خلق، إلّا أني أخاف الكفر! فقال رسول الله ﷺ: فتردّين عليه حديقته؟ فقالت: نعم. فردت عليه، وأمره ففارقها»**[1].

والمقصود بالكفر هنا، هو خوفها من أن تحملها العلاقات غير الحميمية بينهما على التقصير في حقه، وكفران العشير كما أسلفت، وفي مقدمة ما يُحرمان منه هنا الحياة العاطفية.

وغضب رسول الله ﷺ عندما علم بتفريط أحد الصحابة في الحقوق العاطفية لزوجته، وتسبب ذلك في زهدها في العناية بنفسها. كما يتضح ذلك مما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حينما قالت: كانت امرأة عثمان بن مظعون

(١) رواه البخاري.

تختضب وتتطيب فتركته! فدخلت عليّ فقلت لها:.. ما لك؟. قالت: عثمان لا يريد الدنيا ولا يريد النساء. قالت عائشة: فدخل عليّ رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فلقي عثمان فقال: يا عثمان: «**أتؤمن بما نؤمن به؟! قال نعم يا رسول الله. قال فأسوة ما لك بنا؟**»[1].

وفي رواية عند الطبراني: «**يا عثمان أما لك بنا أسوة؟.. وإن لأهلك عليك حقاً.. فأتتهم المرأة بعد ذلك عطرة كأنها عروس، فقلن: مه! قالت: أصبنا ما أصاب الناس**».

وقد فهم الصحابة مثل هذه المعاني، وأدركوا هذه الأبعاد في الحياة الزوجية كما يريدها الإسلام، وكما تقتضيها الفطرة السليمة، فنجد واحداً من كبارهم كابن عباس ﷺ يقول: «**إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي**»، واستشهد بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة٢/ ٢٢٨]. كما نقل ذلك الطبري في (تفسيره).

---

(١) رواه أحمد.

واسمحي لي زوجتي العزيزة، أن ألخص لك هنا ما ذكره الإمام القرطبي في تعقيبه على قول ابن عباس. فقد ذكر كلاماً جميلاً جاء فيه: إن زينة الرجال تكون على تفاوت أحوالهم، فإنهم يعملون ذلك على اللبق والوفاق. فربما كانت زينة تليق في وقت ولا تليق في وقت، وزينة تليق بالشباب، وزينة تليق بالشيوخ ولا تليق بالشباب.. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أمرني ربي أن أعفي لحيتي وأحفي شاربي**»، وكذلك في شأن الكسوة. ففي هذا كله ابتغاء الحقوق، فإنما يعمل على اللبق والوفاق ليكون عند امرأته في زينة تسرها ويعفها.

وكما قلت لك سابقاً يا زوجتي العزيزة، فإن كل هذا مرتبط بمستوى وعي الإنسان بسنن الاستمتاع بهذه الحياة الروحية الوسطى، واستثمارها في علاقته بشريكه أو زوجه وشقه الآخر في الحياة، وفق ما وصل إليه وعيه بسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد!

المتعة الروحية العليا

وهي منتهى الروحانية الاجتماعية، حيث يعيش الإنسان

في غاية الانفتاح على ربه والشفافية الروحية معه، لأنه بالمتعة الروحية العليا، يعيش وهو يحس من أعماقه أن الله معه في كل لحظة ويستمتع بهذه النورانية الدافئة، كما أنه يشعر في الوقت نفسه بقوة أن الله يراه ويشرف على عمله بنفسه سبحانه، فيقدم على كل شيء بروح جادة مفعمة بالثقة والأمل والحماس والمحبة.. كما جاء ذلك في حديث الإحسان الشهير :«**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

فالحياة الروحية العليا يازوجتي العزيزة، باعتبارها انفتاح مباشر على الله، وتوق وشوق إلى شكره ومرضاته، وتوكل صحيح عليه، تشكل مركز الجذب الأعظم للمستويين الأدنى والأوسط من الحياة الروحية، نحو الأعلى، نحو أحسن تقويم، نحو التكامل الذاتي، والانسجام الاجتماعي، والتناغم الكوني، أي مع الكون، الذي يستجيب بدوره بالمزيد من الطواعية واليُسْرية، ويتكشَّف على المزيد من أسرار الجمال والكمال والمتعة الحسية والروحية التي تزيد الإنسان صدقاً مع الله،

(١) رواه البخاري.

وإخلاصاً له، وانضباطاً بسننه في خلقه، وشكراً له، وتسبيحاً بحمده، وتوكلاً عليه، وشوقاً إلى لقائه!

وأكتفي هنا بحديث الرسول ﷺ الذي سبق إيراد جزء منه، والذي يلخص لنا كل هذه المستويات من الحياة الروحية، التي تنتهي بالعبودية الشاكرة، فقد قال عليه السلام: **«حُبِّب إليّ من دنياكم النساء، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»**(1).

ولأنه ﷺ رجل فقد عبّر عن مكانة المتعة الروحية الوسطى في حياته، ولو عبرت المرأة عن نفس الشوق بلغة الأنثى لقالت: حُبب إلي من الدنيا الرجل الصالح! وجُعلت قرة عيني في الصلاة، باعتبارها مركز الثقل في الحياة الروحية العليا، كما جاء في الحديث: **«الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين»**. أو كما قال ﷺ!

العبودية طريق المتعة الروحية العليا

فالحياة في ظلال الإسلام تصبغها وتحفها الروحانية

(1) رواه النسائي.

الاجتماعية في كل مستوياتها، بحيث لا ينفصل فيها الجسمي، عن العاطفي، عن الاجتماعي، عن الأخلاقي، عن الروحاني.. بل الكل يسير في انسجام وتناغم وتكامل، ليمنح هذه الحياة أعلى مستويات فعاليتها وخصوبتها العاطفية والروحية والاجتماعية، تجسيداً لمنطق العبودية الذي جعله الله سبحانه وتعالى قانون وسنة تربوية واجتماعية وحيدة للترقي الإنساني في مدارج الكمال البشري المتوازن، كما جاء النص على ذلك في القرآن والسنة في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام٦/ ١٦٢].

فنحن البشر نترقى في مدارج الكمال الإنساني، ويستكمل أحدنا إنسانيته، ويستمتع بحياته، بقدر ترقِّيه المتوازن في مدارج العبودية لله، وينقص كماله الإنساني، ويتقلص استمتاعه بحياته، ويتضاءل مردود فعاليته الاجتماعية، بقدر نقص عبوديته لله؛ لأن العبودية تبني الداخل الإنساني، وتجمع همه وتوحده، وتركز هذا الهم وتحفظه من التوزع والتشتت التنافري، فتنشحذ

فعاليته الفكرية والروحية والسلوكية والاجتماعية، لذلك وقف الإسلام من ظواهر الشرك والنفاق والفسوق الاجتماعي موقفاً صارماً، وقاومها بلا هوادة، وفي تبرير ذلك الموقف وتلك المقاومة، جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝ ﴾ [الحج٢٢/ ٣١].

وهو المعنى الذي يعمق الوعي به حديث للنبي ﷺ جاء فيه: «**من كانت الدنيا همه فرّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلّا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيّته جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**»[1].

فلأن العبودية لله تبني الداخل الإنساني، وتجمع همه وتوحده، وتركز هذا الهم وتحفظه من التوزع والتشتت التنافري، وتشحذ فعاليته الفكرية والروحية والسلوكية والاجتماعية، اعتبرها الإسلام شرطاً ومعياراً محورياً للكمال

---

(١) رواه ابن ماجه.

البشري، والفعالية الاجتماعية النموذجية، كما يشير إلى ذلك هذا الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ الذي جاء فيه بأن الله تعالى قال: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته**»[1].

التوازن طريق العبودية المثلى

لكي تؤتي العبودية ثمراتها في حياة الإنسان، وتمنحه السكينة، وتعطي جهده فعاليته الاجتماعية النموذجية القصوى، يجب أن تكون عبودية متوازنة، أي مستوعبة لكل أبعاد حياته، ومنمية لكل جوانبها بشكل متعادل ومتكامل، يجعل كل جزئية من جزئيات هذه الحياة، تأخذ حقها من التنمية والتشغيل الذاتي

(١) رواه البخاري.

ابتداء، ثم التوظيف التكاملي لها ضمن حركة الحياة الشخصية والعائلية والاجتماعية بعد ذلك.

وكما تعرفين فإن التنمية والتوظيف الشمولي التكاملي المتوازن لطاقات الفرد والمجتمع، سمة أساسية في الإسلام، تكاد لا توجد في غيره بنفس المواصفات، وهو ما يجعل التربية والتنمية الاجتماعية الإسلامية، تتميز بأقصى مستويات الأصالة والفعالية والاطراد، لذلك يرفض الإسلام أي توجه نحو التجزيئية أو الانتقائية أو الحرفية في استثمار معطياته، لما في ذلك من أخطار على حياة الفرد وحركة المجتمع، ويصر على التعامل الشمولي التكاملي المنهجي المقاصدي المنضبط مع كل معطياته، باعتبار ذلك هو الطريق الوحيد نحو تحقيق العبودية المثلى، التي تمكن الإنسان من الاستمتاع الأمثل بحياته في كل مستويات روحانيتها العادية والنموذجية القصوى كما سبق الحديث عن ذلك.

وقد مرت معنا أمثلة كثيرة عن رفض رسول الله ﷺ لصور التعاطي التجزيئي الانتقائي الحرفي لمعطيات الإسلام،

وركز جهده على تقويم الانحرافات الفكرية والمنهجية والسلوكية بشكل فوري، لايتيح لها الفرصة للتفريخ والانتشار الاجتماعي. وسأذكر لك هنا بعض الأمثلة عن ذلك:

ومنها أن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: **«جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**[1].

فانظري إلى الوسطية المتوازنة التي تنمي كل جوانب الحياة، وتلبي كل احتياجات هذه الحياة بشكل شمولي تكاملي

(١) رواه البخاري.

متوازن، من شأنه أن يرفع مستوى عبودية الإنسان لله تعالى، ويمكِّنه من تحقيق أعلى درجات الفعالية الاجتماعية في حياته الشخصية والعائلية والاجتماعية. ثم تأملي كذلك في منهج سرعة المبادرة في مواجهة مثل هذه الشذوذات الفكرية والسلوكية، وعدم التهاون في أمرها.

وعنها أيضاً أنها قالت: «**دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي امرأة فقال: من هذه؟ فقلت: امرأة لا تنام، تصلي، قال: عليكم من العمل ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا. وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه**»[1].

فالاستغراق المنهك في لون معين من العبادة أو النشاط، على حساب ألوان أخرى من النشاط العبادي الفكري والروحي والسلوكي والاجتماعي، أمر مضر بالفعالية الاجتماعية للفرد والمجتمع، لأن ذلك يقود مع الوقت إلى الملل وفقدان الحماسة، بالإضافة إلى ما يلحقه

(١) رواه مسلم.

ذلك من أضرار ببقية الحقوق والواجبات الاجتماعية التي على الإنسان أن يؤديها تجاه نفسه وأسرته ومجتمعه.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: «مر رسول الله ﷺ على رجل يصلي على صخرة، فأتى ناحية مكة فمكث ملياً ثم انصرف فوجد الرجل يصلي على حاله، فقام فجمع يديه ثم قال: يا أيها الناس عليكم بالقصد، (ثلاثاً)، فإن الله لايمل حتى تملوا»[1]. والقصد: الاعتدال والتوسط في الأمر، بحيث يؤدي ذلك إلى التنمية والتوظيف المتوازن لكل الطاقات بشكل مطرد.

هكذا بالتنمية الشمولية التكاملية المتوازنة، لمكونات الشخصية، وبالاستثمار المتوازن لهذه الطاقات المنَمّاة، يرتقي الإنسان في مدارج العبودية، وتنشحذ فعاليته الاجتماعية بشكل نموذجي، يجعله رحمة لنفسه ولعائلته ولمجتمعه، ولسائر خلق الله تعالى.

---

(١) رواه ابن ماجه.

زوجتي العزيزة: أخيراً أدعو الله تعالى أن أكون قد عثرت على شقي الآخر ثانية، بعد أن فقدته بوفاة زوجتي وحبيبتي زهيــة رحمة الله عليها رحمة واسعة، فقد كانت لي خير أنيس ومعين وسند، وكانت في قمة الأناقة الأخلاقية والاجتماعية، وهو ما كان يزيدها قرباً إلى نفسي، ويعمّق حبي لها، وحرصت من جهتي أن أبادلها نفس الروح ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وهو ما سأحرص عليه أشد الحرص تجاهك، ليقيني بأن ذلك هو واجبي من ناحية، ولوعيي بأنْ عطائك لي وللأسرة وللمجتمع، هو بقدر عطائي لك من ناحية أخرى.

كما أدعوه سبحانه أن يعينني على أن أكون شقك الآخر الذي لم تجديه بعد، أو ادخره الله سبحانه وتعالى لك، كما ادخرك لي! وأخيراً أقول لك دمت في رعاية الله وحفظه وحرز أمانه.

زوجك ومحبك المخلص

طيب

الأستاذ الطيب برغوث من مواليد ٢٠ نيسان/ أبريل ١٩٥١م، بالقطر الجزائري، لأبوين مجاهدين شاركا في أحداث الثورة التحريرية الجزائرية.

متزوج وله ثلاثة أولاد. فقد زوجته في ظروف مأساوية في خضم تداعيات المحنة الوطنية الكبرى.

درس العلوم الشرعية، ونال شهادة (الليسانس) في علم الاجتماع سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٩. وواصل دراساته الجامعية العليا في علم الاجتماع الثقافي، ونال المرحلة الأولى من الدراسة بأطروحة أولية عن: (نظرية مالك بن نبي في الثقافة) سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

اشتغل بعد تخرجه من الجامعة سنة ١٩٧٩ في حقل الإعلام الإسلامي، وأشرف على مجلة الرسالة، وكان عضواً في هيئة تحرير جريدة العصر ومجلة الأصالة. وبدأ الكتابة الصحفية منذ أن كان طالباً في نهاية مرحلة التعليم المتوسط، حيث نشر عدة مقالات في جرائد ومجلات جزائرية مختلفة. وكانت القراءة والكتابة.. حبه وهمه ومتعته الكبرى منذ صغره.

التحق بقسم الدراسات العليا، بمعهد الشريعة وأصول الدين بجامعة الجزائر، وأنجز أطروحة أولية عن: (التدابير الوقائية من الطلاق في الإسلام) سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

التحق بهيئة التدريس بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة منذ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. كان عضواً بالمجلس العلمي بمديرية الشؤون الدينية بولاية قسنطينة منذ تأسيسه، وشغل بالجامعة عدة مناصب علمية وإدارية، منها نائب مدير معهد مكلف بالدارسات العليا في معهد الدعوة وأصول الدين، وعضو دائم بمجلسه العلمي، ونائب مدير مركز الأبحاث والدراسات التابع للجامعة. كان عضواً مؤسساً بجمعية أصدقاء جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

تحصل على شهادة الماجستير في مناهج الدعوة سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م. وأنهى إنجاز شهادة دكتوراه الدولة في نفس التخصص سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧ م. وإن لم يناقشها بعد، بسبب الظروف الصعبة التي مر بها في السنوات الأخيرة التي تعرضت فيها الجزائر لمحنة كبرى.

متأثر بالإمام العلامة عبد الحميد بن باديس، وبالإمام العلامة البشير الإبراهيمي.

ويرى في التجربة التاريخية لـ(جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) نموذجاً ناجحاً في الوعي والفعل الحركي الفعال، كان على الحركة الإسلامية في الجزائر أن تستثمره وتجدده في إطار استراتيجية التكاملية المتجددة للخبرة الوطنية التأصيلية.

انخرط منذ وقت مبكر من دراسته بالجامعة في حركة البناء الحضاري الإسلامية، والعمل الدعوي الفكري التربوي. وأسس مع نخبة من إطارات الصحوة في الجزائر (الجمعية الإسلامية للبناء الحضاري) سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠ م، للمساهمة في النهوض بأعباء الدعوة والتربية والإصلاح الفكري والاجتماعي والسياسي. وساهم في حركة بناء الصحوة وترشيد مسيرتها من خلال تجربته المبكرة في ميدان الدعوة، فإنه يرى أن الدعوة بمفهومها الثقافي التربوي الاجتماعي الشامل، فريضة شرعية لإحياء الدين في النفوس، وضرورة حيوية للإصلاح الاجتماعي لأوضاع الأمة، وتمكينها من مبارحة مستنقعات الإمعية والغثائية والتبعية، واستعادة دورها في التواصل والتكامل الحضاري الفعال مع الحضارات البشرية الأخرى.

يعيش منذ عام ١٩٩٥م خارج الجزائر، بعد أن غادرها

لتحضير شهادة الدكتوراه، واستمراراً في أداء مهمته في المجال الفكري والتربوي والدعوي وحوار الأديان والثقافات والحضارات. يدير بالخارج جمعية مهتمة برعاية شؤون الجالية المسلمة المتكونة من أكثر من ثلاثين جنسية إسلامية مختلفة، ويساهم في حركة تبليغ الإسلام والتعريف به، وحوار غير المسلمين بشأنه وشأن تجربته وخبرته الحضارية الغنية.

امتنع عن المشاركة المباشرة في العمل السياسي الحزبي، داخل الجزائر وخارجها، وتفرغ للعمل الفكري والتربوي والدعوي، اقتناعاً منه بأن ذلك هو المجال الأكثر خصوبة.ويرى بأن عمق الأزمة الوطنية ثقافي تربوي أخلاقي منهجي، قبل أن يكون سياسياً، أو اجتماعياً اقتصادياً مفتعلاً..

ساهمت كتاباته وأفكاره ومحاضراته ونشاطاته الفكرية والدعوية والأكاديمية في تكوين وعي حضاري لدى نخبة مثقفة ولدى قطاع كبير من حملة الشهادات العليا والمهتمين بإثراء التجربة الإسلامية بالوعي والأفكار الحضارية المتوازنة والمعتدلة.

أطروحاته وآراؤه تدعو إلى الحوار والإحسان إلى الآخرين ونبذ العنف والابتعاد عن التطرف والتزام التوسط والاعتدال

والتوازن في الأقوال والأعمال والمواقف. مهتم بنظريات الفعالية الحضارية من منظورها الإسلامي السنني الإنساني الكوني المتكامل.

- أعماله ومؤلفاته:

ألف ونشر الكثير من الكتب، كما درج على نشر مقالات ودراسات في موضوعات متنوعة في الكثير من المجلات والجرائد.

- القدوة الإسلامية في خط الفعالية الحضارية.
- الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام٢٠٠٦م).
- الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية.
- التغيير الإسلامي خصائصه وضوابطه.
- معالم هادية على طريق الدعوة.
- الخطاب الإسلامي المعاصر وموقف المسلمين منه.
- محورية البعد الثقافي من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام٢٠٠٦م).
- المنهج النبوي في حماية الدعوة ومنجزاتها في (جزأين: ماجستير + دكتوراه).

- الأبعاد المنهجية لإشكالية التغيير الحضاري.
- الأبعاد المنهجية للفعل الدعوي في الحركة النبوية.
- مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام٢٠٠٦م).
- الفعالية الحضارية والثقافة السننية. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام٢٠٠٦م).
- التغيير الحضاري وقانون الاستقلالية النوعية التكاملية. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام ٢٠٠٦م).
- مدخل إلى تجربة جماعة البناء الحضاري الإسلامية في الجزائر.
- حركة تجديد الأمة ومشكلات في الوعي والمنهج.
- حركة التجديد على خط الفعالية الاجتماعية.
- مفاصل في الوقاية الاستراتيجية للصحوة.
- صفحات من تجربة حركة البناء الحضاري الإسلامية الجزائرية.
- زواج المسلمة بغير المسلم: تكريم أم حرمان.
- الأسرة المسلمة على طريق النهضة الحضارية. (الطبعة الأولى لمركز الراية عام٢٠٠٦م).

- مدخل للتعريف بالإسلام.
- العالم: رجل وامرأة وطفل وفكرة.

والمتتبع للتطور التاريخي والفكري للأستاذ الطيب يستطيع أن يميز على الأقل مرحلتين بارزتين.

- الأولى: هي مرحلة التأسيس والتنظير.
- والثانية: هي مرحلة الإنضاج والتعميق.

ومن أهم الكتب التي تعبر عن هذه المرحلة الثانية: الفعالية الحضارية والثقافة السُننية، التجديد الحضاري وقانون الواقعية، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية: قراءة في سنن التغيير الاجتماعي، الأبعاد المنهجية للدعوة في الحركة النبوية، التغيير الحضاري وضرورة المنهج...

الفهرس

الصفحة	الموضـــوع
٥	الإهـــداء ....
٧	بين يدي الطبعة ....
١٥	المقدمة ....
٢٥	الزواج بين منطلقين وأفقين ....
٣٣	الزواج مدخل الاستخلاف الحضاري ....
٣٥	مقاصد الزواج في الإسلام ....
٣٧	السكينة روح الزواج وعمق السعادة فيه......
٣٩	قاعدة الزواج الناجح ....
٣٩	صدق وطهارة مشاعر المحبة المتبادلة بين الزوجين .
٤١	أهمية المحافظة على تأجُّجِ مشاعر المحبة .....
٤١	أهمية التعبير عن هذه المشاعر ....
٤٥	دروس تطبيقية في التعبير عن مشاعر المحبة ....
٤٥	درس في إشارات تعزيز المحبة ....

درس في الاستثمار التربوي للقبلات ٤٦
درس في الإيثار التربوي للطرف الآخر ٤٦
درس في الترفيه عن النفس ٤٧
درس في إشعار الآخر بالقيمة ٤٨
درس في تلبية حاجات الطرف الآخر ٤٨
درس في إدخال السرور على الطرف الآخر ... ٤٩
درس في حرصه ﷺ على إدخال السرور على أهله.. ٥٠
أهمية السماحة في المعاملة ٥٢
دروس تطبيقية من المسامحة في الحياة النبوية ٥٥
درس في مواجهة الغيرة الزوجية ٥٥
درس في مباركة المبادرة الزوجية ٥٧
درس في الانفتاح على الهوايات الزوجية ٥٨
درس في مواجهة التوترات العائلية ٦٠
درس في الوفاء المثالي للعلاقة الزوجية ٦٠
درس في التكافل الخدمي العائلي ٦٢
درس في القبول المتبادل للمراجعات الذاتية .. ٦٤
سبيل دوام العشرة وتأجج المشاعر ٦٧

الوعي بالدور المحور للدين في الحياة ٦٨
خطر اهتزاز مركز الدين في الحياة ٦٩
دستور الحياة الزوجية ٧١
أخطار الوعي المزيف بالإسلام ٧٢
أهمية الرؤية الوسطية للإسلام ٧٦
الوسطية تكمن في تكامل فهوم أفراد الأمة
وجماعاتها وأجيالها ٧٨
اليسر والمرونة جوهر الوسطية الإسلامية ٨٣
دروس تطبيقية في الرفق واليسر والمرونة المنهجية المنضبطة ٧٨
درس في ترشيد الوعي بسنة المد والجزر في حركة
الالتزام ٨٨
درس في النهي عن حرمان النفس من حظوظها في
الحياة ٩٠
درس في الاعتراف بخطورة التشديد على النفس . ٩١
درس في الموازنة بين الرغبات الذاتية وحقوق
الشراكة الزوجية ٩٣
درس في نور المرونة المنهجية المنضبطة ٩٥

درس في رفض تزهيد شريك الحياة في حقوقه العاطفية ٩٧
أهمية الوعي بالمنهج في الفهم والتمثُّل الوسطي للإسلام ١٠١
المنهج روح الوعي ١٠١
أهمية الوعي بنسبية إدراكنا للحقيقة والصواب ١٠٢
أهمية الوعي بهامش الذاتية في فهمنا وفي أحكامنا ١٠٣
أهمية الوعي بقاعدة عدم مصادرة حرية المخالفين ١٠٣
دروس تطبيقية في خطورة قصور الوعي بالمنهج .. ١٠٧
درس في الوعي بأهمية توقيت المواقف ١٠٧
درس في الوعي بمآلات الأفعال ١٠٩
درس في الوعي بفقه الاستثناءات ١١١
درس في الوعي بمتطلبات المقامات الاجتماعية . ١١٣
درس في حفظ هيبة السلطان ١١٤
درس في الوعي بمعادلات الواقع ١١٥
درس في البعد عن الإقتداء الحرفي ١١٧
درس في الترفق التربوي ١١٩

درس في الوقاية التربوية من الفتن ١٢٠

منارات على طريق الحياة الزوجية الناجحة.... ١٢٣

منارة الهيبة من الله والخشية من انتهاك حرماته... ١٢٣

منارة صبغ الخدمة العائلية بطابع العبادة ١٢٥

منارة احترام ميثاق الزواج الغليظ ١٢٩

منارة الثقة المتبادلة بين الزوجين ١٣٠

منارة المعرفة بطبائع وأحوال الآخرين ١٣١

منارة المعرفة العميقة بالذات ١٣٣

منارات الصدق والصراحة والمحبة والرعاية المتبادلة ١٣٤

منارة البعد عن الأنانية وعدم الاهتمام واللامبالاة بالطرف الآخر ١٣٥

منارات الإيثار وإبداء الاهتمام والعناية بالطرف الآخر ١٣٦

ومنارة البعد عن الممنونية ١٣٦

ومنارة خطر كفران النعمة وجحد الجميل ١٣٧

منارة البعد عن الندية والمعاندة والمبالغة في حب إثبات الذات ١٣٩

منارات الليونة والمرونة والرفق في مواجهة التوترات الأسرية ١٤١
منارة اتقاء سورة فقدان التوازن النفسي والفكري والبدني ١٤٢
منارة الانفتاح على ما هو إيجابي وجميل في حياة الآخرين ١٤٤
منارة الحذر من العجلة في بناء الأحكام والمواقف .. ١٤٨
منارة الاعتذار والاستدراك ١٥٠
منارة رؤية الآخرين كما هم لا كما تريد أنت أن يكونوا ١٥١
منارة حسن الاستماع للآخرين ١٥٢
منارة الشكر والتنويه بجهد الآخرين ١٥٤
منارة الحذر من المنفرات ١٥٦
منارة حسن الظن والبعد عن تتبع العثرات والعورات ١٥٩
منارة البعد عن مواطن الشبهات ١٦١

منارة التجديد والإبداع المستمر في العلاقات الزوجية ١٦٣
منارة الإدارة المشتركة للحياة العائلية ١٦٤
منارة الحذر من تدخلات المحيط في الشأن الأسري الخاص ١٦٥
منارة إذا أردت أن تطاع فاطلب المستطاع ١٦٦
منارة القدرة على توقيت تحقيق الرغبات وإنجاز الأعمال ١٦٦
منارة طلب الكمال في الذات لا خارجها ١٦٧
منارة التنظيف المستمر للمشاعر من السموم النفسية ١٦٨
منارة اتقاء مغبة الحسد ١٧٠
منارة الاستعصاء على الاستلاب والإمعية ... ١٧١
منارة تطوير الوعي الذاتي باستمرار ١٧٤
وصيــة غاليــة ١٧٧
في فلسفة الزواج ١٧٨
في أصول المعاشرة الزوجية ١٧٩
في أصول الأناقة والجاذبية الزوجية ١٧٩

في الراحة والسكينة المنزلية ١٧٩
في الرعاية المالية والأسرية ١٧٩
في الطاعة والأمانة ١٧٩
في مراعاة الحال ١٨٠
دعـــاء ١٨١
ملاحـــق ١٨٣
القوة التكاملية البناءة في الحياة الزوجية ١٨٥
الحياة الزوجية في طريق التكاملية ١٨٥
معوقات في طريق تكاملية الحياة الزوجية ١٨٧
شروط التكاملية في الحياة الزوجية ١٨٩
الفجوات المضرة بالحياة الزوجية ١٩٣
فجوة التحسس من تميز وقوة أحد طرفي
العلاقة الزوجية ١٩٣
في أسباب وباء التحسس ١٩٤
الفكرة القاتلة في العلاقات الزوجية ١٩٥
الحاجة الملحة إلى الوعي الأسري الرسالي ١٩٨
المتعة الروحية سر السعادة الزوجية ٢٠٣

متعة الحياة الروحية الدنيا أو العادية ٢٠٤

المتعة الروحية الوسطى ٢٠٦

المتعة الروحية العليا ٢١٢

العبودية طريق المتعة الروحية العليا ٢١٤

التوازن طريق العبودية المثلى ٢١٧

المؤلف في سطور ٢٢٣

الفهرس ٢٢٩

رضي الله عن علي وفاطمة الزهراء ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان : ٧-٨) .

الأسرة حديقة الحب والحياة والمودة والرحمة ، وهي لم تحتضر بعد رغم كل ما يحاك ويحكى ، سواء في فلتان الإعلام المنفلت ، أو عبر المؤتمرات الأممية (البكينية) الوجودية .

إلا أن البعد التربوي التوعي ، عملية نضالية نابضة ، لم تنل حظها الحقيقي في تشييد وترشيد العائلة ، بمفهومها الحضاري ومراميها المصلحية . فالتكرار والاجترار ما بين القديم والحداثة - بما لهما وعليهما - قد حجبا حقًا آن أن يظهر ،وآفاقاً لم تتمظهر لا فلسفة ولا فهماً ، لكيفية التشكيل المعرفي المغري بالتأمل والمراقبة إن على مستوى التنظير والتأويل ، أو الممارسة والمأسسة. وزاد الطين بلة صور نمطية صارمة ، تم تداولها وتعميمها كمرآة وحيدة لما ندعو إليه الناس ، كفيلة بتنفيرهم وكافية لفرارهم !

ولتحقيق وتطبيع المثل الملائمة لكل زمان ومكان ، كان من القربات تصحيح وتصويب حركة الأسرة ، لتصبح مؤهلة للإشعاع الإنساني ، ولتجسد مراد الوحي ومبينه ، بديلاً أصيلاً وعصرياً عن هذه الغربة الغريبة وهذا التصدع الثقافي .

إن (وصيتي للمتزوجين) والعزاب أيضاً ، أوراق فكرية وفطرية وعاطفية تعكس رؤى إصلاحية وإسعادية محكمة ، تصب في إطار التجدد الإسلامي والإحياء السنني ، كتبها بتوقد واقتدار الأستاذ الجزائري العالمي الطيب برغوثي ....

وعلى الله قصد السبيل

عبد الله زنجي

S.R. 24
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
ريال

2292 8764
EA 395094
الأسرة المسلمة على طريق النهضة